الفصل الثامن
"زمن الحيرة"

دعا الجد علي ربه في مطلع السنة التالية (1234 هـ) أن يجعلها عام خير وبركة، وأن يكشف عنهم تلك المحنة التي أدت لسقوط الدرعية في يد إبراهيم باشا، وما قام به من تنكيل وتعسف ضد أهلها، وسأله سبحانه اللطف في القضاء، ثم أخذ يتفكر في حاله وعياله ثم فيما حدث لدياره، وما قد يؤول اليه الأمر من فساد، وكيف يعمل لتلافي سيئات ذلك. أخذ يسلي نفسه بالاستغراق في رعاية زراعته وبهائمه، وتقليل مشاركته في مجالس الصحب التي تثار فيها أقاويل غير مؤكده، وتحريض البعض للناس أن يهبوا لقتال الترك، من أقوام لم يعرف عنهم الصلاح أو الشجاعة، بل حباً في إثارة فتن نائمة بين الأهالي، ومقارنة مع الفارق لما يقوم به أهل عسير من معارك كر وفر ضد الغزاة، يقوده أناس من ذرية الشريف أبو مسمار وأبو نقطة وابن مسلط، لكنها جلبت على منطقتهم الانتقام التركي مؤيدا من شريف مكة. كما وردته أنباء عن مقتلة شديدة بين أهل جلاجل وحرمه، على أمور دنيوية رخيصة ومطامع رئاسية قديمة، والباشا غير راغب في قمعها، وعقلاء سدير غير قادرين على جلب الصلح بين الأهل، وحمد الله أن الحريق قد قيض الله لها رجل حكيم (تركي الهزاني) تمكن من كبح جماح المسلحين سواء من جماعته أو غيرهم، ومنع تعدي القوم على بعضهم البعض، أو على ارحامهم وجيرانهم أو على البادية والسابلة، كما أن آل عفيصان في الدلم يديرون شئون اليمامة بما عرف عنهم من حب للإصلاح وحزم. كان الجميع في توق لمعرفة ما يجري في عاصمة نجد، وجاءت أنباء أن الباشا رتب له قصر في بستان جنوب الدرعية يدير منه شئون البلاد، ولم يكن يرتاح لأحد من أهل نجد وبخاصة زعماء عشائر البدو، لكنه وجد الأقل سوء هما المعمر والعايذي، زهما متنافران ويوصي كل منهما ضد الآخر، لذا أوكل أمر شمال الدرعية للمعمر وقاعدته في العيينة ومعه كتيبة من الترك، أما جنوبها فقد عهد به للعايذي فجعله أمير للرياض، لكنه أبقى آل عفيصان في الدلم بناء على نصيحة البعض لعدم الثقة في العايذي، المتسرع في تقلب ولائه مع المصالح اللحظية، كما كان بعض العفيصان يعملون مع الباشا في الدرعية في غدر بأهل ديارهم. ثم جاء للجد نباء أن بعض من ذرية الشيخ محمد عبدالوهاب وهم من وهبة تميم، قد لجأوا عند ناس من سكان حوطة بني تميم، فظن أن بعض من آل مقرن قد يكونوا معهم، وفكر أن يذهب إليهم لكنه راجع الحال، ورأى من غير الملائم زيارتهم وهم في تخفي، ومن الأفضل بقائهم بعيداً عن الأعين والزوار، ونصح بعض أهل الحريق بالتكتم على الخبر لدفع الضرر عنهم، لكن البعض ذهبوا ولم يجدوا إلا انكار وجود أحد من الدرعية في الحوطة. وبقي الجد يتلمس سراً عن مكان حفدة مؤسس حركة الإصلاح، فبلغه أنهم قد تفرقوا خشية الوقوع في أسر الروم، والبعض منهم في جنوب

شرق البلاد (شارقة أو مسقط) وآخرون في الزبير عند قرابتهم آل وطبان، أو ربما لجاء أفراد عند آل خزعل في عبدان، وهم من المحبين لقومهم العرب ولا يتطرفون في التشيع. ثم بعد ذلك الاضطراب صرف الجد نظره عما جرى لبقية آل مقرن، الذين لم يقعوا بعد في قبضة الباشا، حيث يعاملهم بالقتل أو النفي خارج البلاد.

لكنه وجماعته تلقوا بعد فترة نباء كالصاعقة على الرؤوس، حيث علموا أن الإمام عبدالله (ابن سعود) قد جرى إعدامه بطريقة وحشية في عاصمة الخلافة، فقد جاء أحد العاملين في الدرعية لقرابته في الحريق يقص في ألم ما جرى له، إذ استقبله الباشا الكبير في مصر بحفاوة جمة، وأمر بإسكانه في قصر أحد أولاده ووفر له كل سبل الراحة. ولما جاء لزيارته حاملا صندوق المجوهرات المأخوذة من المرقد الشريف للمصطفى عليه السلام، رفض قبوله وأقنع الإمام أن الأفضل لو يقوم بنفسه بتسليمه لمولاهم السلطان في تركيا، ووعده أن يكتب معه خطاب بذلك يرجو فيه أن يعامل بالحسنى والعدل، كما سيوفر له وعشرة من مرافقيه سفينة مريحة تنقلهم للأستانة، وقد انطلت عليه ببساطة تلك الأقوال، فرحل من القاهرة مع صحبه حاملين صندوق الجواهر الثمينة أو ما تبقى منها. كان من الواضح ان محمد علي لا يرغب في وجود الماسة الدم قريبة منه، والتي يسميها الهنود "كوكب دري" ونصبوها أعلى موضع الرأس عند اللحد الشريف، أما الحجازيون فيسمونها "الألماسة الملعونة" حيث تجلب الموت لكل من يلمسها، وقد سبق أن حذروه منها أثناء وجوده في المدينة المنورة قبل خمس سنوات. عند وصولهم لقصر السلطان رفض استقباله، واتهمه بأنه لص المقابر وأمر بصلبه وعدد من رفاقه أمام بعض الجوامع، وفي صدر كل منهم غرس خنجر ضخم، عليه ورقة كتب فيها أن هذا جزاء الخوارج. واما الألماسة فقد أرسلت لأخت الخليفة التي كان عرسها بعد أيام، لكنها ماتت قبل الاحتفال فتطير الجميع من النحس، وتقرر إعادتها للمرقد الشريف في الحرم النبوي. أحد مجالسي أبي سمعته يعترض على رواية العامل، فقال إنه اطلع على وثائق عثمانية ومصرية تناقض ذلك، حيث تبين اجراء محاكمة للإمام ومرافقيه، فيها عدة قضاة واستمرت أكثر من شهرين، واستمعوا لأقوال المتهمين والشهود، حيث حاول عبدالله بن سعود التنصل من أفعال أبيه، وادعى أنه لم يكن موافقاً لما جرى، ولم يحضر الكثير من الوقائع المسرودة ضده، ومنذ تولى حكم الدرعية لم تحدث منه أي إساءة للمسلمين أو اعتداء، كما أنه لم يخل قبر النبي عليه الصلاة والسلام، ولم يأخذ شيء من موجوداته، بل حصل على أكثرها الأشراف وأغوات الحرم النبوي. لكنهم استدعوا شهود أنه قاد نيابة عن أبيه حملة منع دخول حجاج الشام للحج، كما تعرف عليه بعض الكبار منهم، وأنه شارك في قتل نساء وأطفال جنوب العراق، ونقض الصلح المبرم بينه وطوسون بعد موت أبيه، وأن كل محاضر المحاكمة موثقة كتابيا، لذا صدر حكم القضاة باعدامه ورفاقه عملا بقوله تعالى "إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض" وعند رفع الحكم لمرجعهم

السلطان محمود خان لم يبرمه، بل اكتفى بالقصاص للإمام واثنان من المقربين له، فاختاروا من العمال، وتركوا بعض من آل مقرن كانوا معه. ثم صدر أمر بالعفو عن البقية والسماح لهم بالبقاء في تركيا أو العودة لمصر، وأرسل لمحمد علي باطلاق سراح كافة من عنده وهم مئات، وتوفير السكن والطعام والثياب اللائقة للصغار والنساء، مع السماح لمن يرغب في العمل في كافة المهن ما عدا الفقه والقضاء، ويجوز لهم السفر إلى أي مكان ماعدا بلاد العرب "عربستان" ومن يذهب إلى هناك يجازى بالقتل، ثم أعاد التأكيد بأنه اطلع شخصياً وليس سماعاً على مكاتيب بفحواه. ساد المجلس الصمت والبعض يبحلق في الرجل ذو أشباه العترة التركمانية، لكن أبي لم يتح المجال لأحد أن يدخل في جدال، فتبسم قائلا ربما أن الأمر في مكان بين الروايتين، وبقي الكثير في حيرة بين سرد العامل أو ذلك "الناشط الأكاديمي!" ويقول الله أعلم.

بقي أهل الحريق في حيرة بعد تلك الفاجعة، حيث فقدوا الأمل في عودة الحكم السعودي، أما الجد فقد انشغل عن حواراتهم بمرض أحد أبنائه، فذهب للخرج للبحث عن دواء له والله وحده الشافي مع وجوب فعل السبب. ثم حلت عليهم طامة أخرى فإن العايذي حاكم حجر اليمامة، أبلغ الباشا بما أشيع عن وجود بعض نسل ابن عبدالوهاب قرب برك أو الفُرع، مدعيا أن العفيصان غير قادر أو راغب في قمع المناوئين، في تلك المنطقة الوعرة والمحبة لحركة الإصلاح السعودية، وحاول إقناعه بجعلها تحت ولايته حتى يحكم اليمامة كلها، لكن الباشا رأى من الأفضل أن يرسل أحد كبار وزرائه (باشبكان) يقال له "جخدار" ومعه خمسون جندي تركي وحشد من الأعراب برئاسة قريب العايذي، وأمرهم بجلب أي شخص من ذرية الإمام محمد بن سعود، أو الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى الدرعية، ومصادرة كافة ما يجدونه من أموالهم، وفرض ضرائب ومكوس على كل قرية. وقد بدأوا العمل بالقبض على آل عفيصان، وقتل من حاول منهم الفرار وسلب أموالهم، ورغم قلة عدد الغزاة وضعف سلاحهم، إلا ان المنطقة استكانت لهم ولم يجرؤ أحد على اشهار سلاحه ضدهم، مما نبه الجد لما قرأه عن أن الناس في الشام دخلتهم الذلة زمن غزو المغول، فكان المغولي يأمر الرجل أن يبقى مكانه حتى يذهب لإحضار سلاحه لقتله، فيقعد مرتعدا ينتظر الموت عاجز عن المقاومة أو حتى الفرار. أدى ذلك لتوصية من جخدار للباشا أن يعين الزامل أميراً على الخرج، فوافق الباشا غير مدرك أن العايذي والزامل والعفيصان كلهم قرابة، وأنى له ذلك ولم توجد حينذاك حفائظ النفوس أو سجلات الأحوال المدنية على الكمبيوتر. بينما الناس منشغلون في تحول الإمارة، كان الجد في مرارة عميقة لاستمرار تدهور صحة ولده، كما أنه أثناء زيارته الأخيرة للدلم استضافوه القوم، وكلهم أرحام من جذور متقاربة كرماء يعملون بالسنة، وأرشدوه للعارفين بالعلاج والمداواة والرقية، لذا في حالة كدره لم يبال من منهم يجلس على مقعد الرئاسة والتعالي، فهو مشغول بعبادة ربه ورعاية عياله وزرعه وأنعامه وأمواله، والأمر كله في يد الله ثم الباشا ولا دبرة لغيره مهما ادعى المتقولون بأن السلطان لهم. لقد تفاقم الحال سريعا حيث بداء السفهاء والصعاليك

يجاهرون بالسيئات، مما لم يكن أحد يجرؤ عليه خلال نصف القرن الماضي، وهل يقدر زقم بن زامل على تقريع المدخن للتنباك في السوق؟ وما رد فعل الباشا وأعوانه في الدرعية إذا ما وردتهم شكوى ضده؟ أليس عارفا أنه مجرد عبد مأمور؟ عليه ألا يثير حنق القيادة العليا ضده، وبخاصة أن الفواحش ترتكب في الدرعية ولم يعد بها من ينكر ذلك.

انفتحت شهية الباشا للأموال لما رأى ما أحضره جخدار من الخرج، حيث صادر كل ما يخص ولاة الأمر من آل سعود، وباع ما وجده من أملاك وأثاث وحيوانات تعود للحكام السابقين، لذا قرر الحصول على المزيد من المال من بقية بلدان نجد، ليرسله لوالده في مصر لتعويض النفقات الباهظة لحملة السنوات الماضية، وزين له أصحاب الهوى أن يسترجع ما سبق أن منحه لكثير من الأهالي، لقاء ولائهم له ضد ابن سعود، وحتى ما دفعه نظير خدمات النقل أو الإعاشة التي قدمت لقواته، بخاصة أن لديه رجل يقال له "خازن دار" يحفظ سجلات مفصلة بها حساب كل جنيه أو ريال أو قرش أنفق على الحرب لإسقاط عاصمة الوهابية! توجهت كتائب من عساكره لقرى سدير والوشم والمحمل، لاسترجاع ما دفعه سابقا للناس من عطايا أو ثمن مشتريات أو خدمات. لقد استخدمت أسواء وسائل الإكراه للحصول على المال بدون وجه حق، وورد للجد قول أحدهم أن عساكر الباشا لما قيل لهم أن من استلم هديته قد مات ولا نعلم أين ذهبت النقود، أمروا بنبش قبره فربما أخفيت هناك، مع روايات مروعة أخرى عن أساليب كريهة لجمع المال، ولم يعد الباشا يتجمل عند الناس بعد أن ظهرت حقيقته، وخيانته بالإمام وغدره بالوعد بعدم التعرض لأهالي الديار، لذا بعد انكشاف خسته لم يعد يبالي بما يقال عنه، فكل همه تحصيل أموال كتعويض عن نفقات عدوانه الأثيم. بعد ذلك مارس المزيد من البطش والإهانة والاحتقار للسكان، فسخرهم للعمل في هدم السور وأبراج الدفاع وقلاع الحماية، بل زاد ايضاً بإرغام الرجال على تدمير البساتين وقلع الأشجار، ثم جرت إهانة النساء وهتك سترهم، أما منازل الدرعية وقصورها العامرة فهدمها، عليه من الله ما يستحق هو ومن قال فيه سبحانه "إذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد" لذا زاد شعور الألم والحزن في خاطر الجد علي، وهو يتساءل إلى متى وماذا بعد؟ كان الجواب بعد تفكير مرير وتداول مستفيض مع الأهل، لطمة قاسية بأن الحال السيء سيكون أكثر سوء مع مرور الأيام. اعتمرت الأفكار السوداوية في رأسه وأخذت الهواجس تستعر في قلبه، لكنه يتصلب إزاءها بالثقة في خالقه، ويستعين على حاله بالصبر والصلاة التي تربطه بالعلي الكبير واللطيف الخبير، وهي الملاذ الآمن له لمجابهة ما تواجهه دياره وأهله من محنة قاسية. بعد ذلك تمزقت نياط قلبه واشتعلت الحرقة في جوفه، وهو يقبر فلذة كبده الذي اشتدت عليه وطأة المرض فانتقل لجوار ربه، وكاد يسقط أرضاً وهو يتلقى العزاء من أهله وصحبه، يشدون أزره ويقوون عزيمته لمجابهة تلك المصيبة، مرددا إنا لله وإنا اليه راجعون، ومحتسبا ذلك عنده وعينه تدمع وخاطره يحزن لكنه لا ينطق بما يغضب

ربه. وفي الليالي التالية أخذ يسمع "إن أرضي واسعة" وقوله "ألم تكن أرض الله واسعة" فيستيقظ ذاكراً ربه، مردداً بلى بلى واسعة للغاية. الفكرة التي خامرت رأسه خلال الشهور الماضية، استقرت في نفسه كلياً لكنه لم يعلم اذا كان الصواب أن يسارع لبيع أملاكه، ويتوجه من فوره لبلدة خارج نجد حيث يمكن أن يجد الطمأنينة، ويبتعد عن نفوذ عساكر الترك ومنكراتهم، فتشاور مع أهله ورفاقه وكاد الجميع أن يتفقوا على محاولة ثنيه عن الهجرة، ولما جابههم بإصراره الحوا عليه أن يتوجه وحيدا لسبر المكان الذي يريد، واذا وجده ملائما فيمكنه العودة للحريق واصطحاب أهله وماله.

توافقت الآراء على أن الأقل سوء من الأماكن المقترحة، هي الحجاز والقطيف والشارقة ومسقط، لكنه استبعد الحجاز لوجود قاعدة الباشا وسيئاته هناك، أما مسقط فعلم أن الولاة هناك على مذهب خوارج الإباضية، لذا صرف النظر عنهما. ثم باشر في دراسة أحوال الشارقة والقطيف، والتقى مع بعض من زاروا تلك البلاد للعمل أو التجارة، ومن لديهم أقارب ارتحلوا للإقامة هناك، وتبين له أن الشارقة أكثر ملائمة حيث أمرائها أشراف "قواسم" من أهل السنة، ويعملون بنهج السلف الصالح وينبذون المنكرات، أما القطيف فيحكمها رحمة الجلهمي، الذي كان مناصراً لآل خليفة (البحرين) ثم تحالف مع الدرعية وأموره غامضة. وجد قوم يخرجون عدة مرات في السنة نحو البحر الشرقي، ويذهب معهم التجار والعمال في أمان من شطار الطريق، لكن النسوة والصغار ألحوا على الجد صيام الشهر الفضيل معهم، لذا أجل سفره حيث صام العام الماضي في الدرعية بعيدا عن الأهل والديار، كما أن الإصابة في رجله ما زالت تؤلمه رغم مرور سنة على وقوعها. في مطلع رمضان دخل السرور في قلب الجد لأول مرة منذ شهور، فقد تأكد نباء مغادرة الباشا الدرعية بل نجد كلها، وشاع القول أنه سيعود لمصر، حيث أن زوجته التي استدعاها من هناك مع طفلها الصغير، الذي ولد بعد مغادرته في غزوته الغاشمة على بلاد العرب، قد ولدت له بنت سماها فاطمة الزهراء، وهذه من عادات الترك ومن يجاريهم، حيث يحرصون على المظهر الإسلامي الخارجي، ولا يبالون بلب الدين من إخلاص وتوحيد وعمل بالكتاب والسنة، وعندما أقبل قيظ وادي حنيفة الجاف المغبر تضايقت الزوجة وصغارها، فالحت على الباشا المغادرة للحجاز أو العودة لمصر المحروسة! لكن الجد علي عاد للكدر حول من سيتولى قيادة أمر الدرعية وتوابعها. جاءت أنباء متضاربة أن الباشا لم يطمئن للعايذي وخداعه، كما أنه معجب بابن معمر وصدقه وحزمه وحسن تدبيره وربما يوكل إليه تولي إمارة الدرعية، شريطة البعد عن الشطط في الدين. كما راجت أقوال أخرى عن أن أبناء عمة الباشا قد يباشرون ذلك، وهم على علاقة قوية مع خالهم الباشا الكبير (محمد علي) فهو يحب والدتهم كثيرا ويعز أبنائها، ويمنحهم ثقته وتفويضه لهم في أدق الأمور، وربما يسند إلى أحدهم السيطرة على نجد، التي لن يثق في أحد من العرب لتوليها. وقد صحت التقديرات فقد تولى حسين بيه ولاية أمر الدرعية، ويستشير عدد من كبار رؤساء العشائر في الأمور المحلية، وأوكل لقضاة موثوقين النظر في

منازعات الأهالي، لكن أكثر اعتماده على أمير العيينة في جناحه الشمالي، وامير اليمامة للجنوب. في رمضان تفاقم ضيقه من أحوال الدرعية، ومشاكسات أهلها لعساكره المخالفة للشرع، لذا ترك أحد ضباطه لتولي أمورها والتجع أسفل عقبة حيسية، مقيما في بستان وزراعة لبعض عناقر ثرمدا، التي هي أشد حراً وأكثر غباراً من الدرعية، لكن الخاطر يتأثر بأمور أخرى.

في خامس أيام الفطر شد الجد علي رحاله مع صحبه، وتوجه ركابهم نحو الحوطة حيث انضموا لقافلة متجهة شرقا، وبعد تجاوز طرف تلال العرمة بيومين، شاهد شعيب قاحل به أشجار طلح شبه جافة، وعلى جانبيه آثار زراعة قديمة طمرت أكثرها الرمال، وقال له أحدهم أن على ميمنتهم بعد مسير ساعات قليلة، توجد بقايا قرية فيها عيون ماء شبه جافة، وهي مكشوفة للرياح لهذا يسمونها "درعاء" وأن عشيرة مانع المريدي (جد ابن سعود) كانوا يسيطرون على هذه المنطقة قبل مئات السنين، ثم رحلوا إلى غصيبة وسموها الدرعية، لكن أحدهم قال أن الاسم جاء من منطقتهم السابقة، حيث كانوا يملكون قرية درعا حوران في الشام، وذكر أن هذا الشعيب لا يسيل إلا مرة كل عشر سنوات أو أكثر. في اليوم التالي لاحظ تغير التربة لتصبح رمال قاحلة، ولما بدت لهم على البعد يسارا قرية صغيرة، قرر قائدهم أن ينوخوا جنوبها حيث توجد أعشاب جافة ترعاها دوابهم، وقربهم بئر ماء يصلح لشرب المضطر، وقال ان القطيف على أقل من مرحلة، وعليهم الإقامة هناك حتى يعود إليه مندوبيه بأن الحال مطمئن قبل دخولهم البلدة. رغم أن الجد سبق له أن زار الزبارة ورأس الخيمة ومسقط، إلا ان تلك أول مرة يتوجه فيها شرقا عن غير طريق الأحساء، وفي الليلة التالية جلس مع الرفاق يتسامرون ، فتساءل أحدهم عن رحمة الجلهمي حاكم القطيف، الذي تواردت عنه أنباء كثيرة متضاربة، تطوع رفيق بالقول أن الجلاهمة من عنزة الوائلية، وموطنهم في الجزيرة بين دجلة والفرات، لكنهم يسيحون في أرجاء العراق والشام ونجد، واستقرت عشائر متعددة منهم قبل قرون في الأفلاج، قرب ليلى بلدة بني عامر (صعصعة) حيث الجيران الكرام، لكن بعد فترة زحفت أقوام من مذحج قحطان متجهة شمالا من بلد الدواسر نحو الهدار، وجرت بينهم والعنوز نزاعات فأرغموهم على الرحيل غربا نحو بيشة، لكنهم وجدوا هناك قوم منهم (الجلاسية) يكسبون أموال طائلة من تجارة الرقيق في زنجبار، ولم يتآلفوا معهم، فتوجهوا شمالا نحو تبوك، فلم يرق لهم الحال هناك فعادوا للعراق، وبعد سنين شدت بعض عشائرهم رحالها جنوب كوت البصرة، فاستقرت جماعة صباح العذبي في الكويت، ورغم أن آل رحمة قريبون منهم إلا أنهم لأمر ما لم يبقوا هناك، بل ارتحلوا مع آل خليفة نحو الزبارة (شمال غرب قطر) حاليا، حيث توجد مصادر مياه عذبة وتربة صالحة للزراعة، مع موقع يطل على جزر البحرين في جنوب بحر القطيف. وقد كان الخوالد يسيطرون على الساحل الشرقي من جزيرة العرب، مدعين تفويضهم من خليفة إسطنبول، ويجمعون الحصة المقررة له من الزكاة، كما يمنعون التعدي على السابلة والحجاج، فانضوى تحتهم آل خليفة مهادنة.

في تلك الحقبة أخذت الزبارة تتوسع ويقوى عودها وسيطرت على المحرق والشارقة ورأس تنورة، ثم بدأت تجارتها المباشرة مع الهند، كما أخذت تبنى زوارق صيد وغوص (سنبوك وجلبوت) ثم سفن نقل صغيرة (الدو) وتطورت لاحقاً لتدخل مجال السفن الحربية للملاحة في أعالي البحار، وبداء البرتغاليون في مسقط والإنجليز في بومباي يشعرون بتزايد نفوذ المنطقة فمنعوا تركيب أكثر من مدفعين على سفن العرب، لكن رحمة كان حاذقاً فكان ينزع مدافع سفنه الصغار، ثم ينصبها في سفينة كبيرة غدا فيها خمسة عشر مدفع، سبعة على كل جانب وآخر كبير في المقدمة، وسماها "غطروشة" ويتبعه من السفن الصغيرة والمتوسطة نحو عشرين. أدى ذلك إلى زيادة زهوه فبداء يهاجم سفن النصارى، التي في بحر القطيف والبصرة، مما حدا بهم لتجنب دخول تلك المناطق الضيقة، ثم تجرء آل رحمة للخروج من الخليج نحو بحر عمان، وقد كسبوا كثير من الغنائم أدت لزيادة مواردهم، لكن النصارى اعتبروا ذلك من أعمال القرصنة، وجلبت شركة الهند بوارج لحماية سفنها التي تحمل بضائع من جاوة والملايو والصين، يأخذونها بأبخس ثمن وينقلوها لبلادهم للبيع بأرباح عالية، لكن العرب آنذاك لا تنقصهم الجسارة والإقدام، ففي بعض المرات كان أحد آل رحمة يقود مراكبه لمطاردة لصوص النصارى، ولما عجز عن ايقافهم هجم بمقدمته على (النيم) حيث دفة التوجيه، فاضطربت قيادة عدوه وتمكن من الاستيلاء على ما بحوزتهم، بينما بحارة غطروشة يزغردون ويغطرفون ويصيحون على خصومهم، وكانت شجاعته وكرمه مع أعوانه وعطفه على المحتاجين مضرب المثل.

ثم قيض الله قيام حركة الإصلاح في الدرعية، ولما توسع نفوذ الإمام عبدالعزيز شرقاُ وبداء الصدام مع الخوالد، وجد آل خليفة الفرصة سانحة لاستقلالهم، فقرروا تقديم الولاء للدرعية البعيدة عنهم بدلا من الأحساء القريبة، لكنهم لما ذهبوا هناك لاحظ عليهم المشايخ بعض مخالفات وبعد عن سنن السلف، فحدث جدال رغم أن الإمام كان يسعى لإضعاف الخوالد ونزع حلفائهم. كان مع الزوار رحمة الذي كان ما يزال في الثلاثينات، وهو وزير مفوض لآل خليفة يشد أزرهم ويحمل أوزارهم، ولما وبخهم أحد الفقهاء لوجود مخالفات رد عليه مازحاً رازحاً، بأنهم ما جاءوا إلا لمحادثة الكبراء، ولو أن غطروشة تصل وادي حنيفة لجعل عالي الدرعية سافلها، فتأفف منه الإمام لكن ولده (أبوشوارب) رد عليه مبتسماً ولو أن خف ناقتي يصل البحرين لجعلتها قاعا صفصفا، ثم بعد ذلك نشأت علاقة وطيدة و انسجام بين رحمة بن جابر وسعود لم تعكرها بعض حالات الخلاف، وعاد آل خليفة وقد أقطعهم الإمام عبدالعزيز إمارة الساحل الشرقي، تحت ولايته ويعاونوه على محاربة حكام الأحساء. لذا قرر الخوالد الاستعانة بالإنقليز الذين حاصروا سفن رحمة، ومنعوها من الخروج لبحر الهند العظيم عبر مياه إمارة هرمز ورأس مسندم، كما أن أهل مسقط (بوسعيدية) وقفوا ضده أيضا، بينما تعاون معه بعض القواسم أهل الشارقة الحنابلة. لقد كان طريق الحرير الذي يمر من الصين عبر بلاد التركمان ثم الفرس حتى يصل تركيا، قد غدا قليل الجدوى بسبب

طول الرحلة، وعدم قدرة الدواب على حمل الكميات الكبيرة من البضائع، كما أن السفن الشراعية تواجه صعوبة المرور عبر رأس الرجاء الصالح، نظراً لبعد المسافة وتقلب الرياح في جنوب أفريقيا، لذا كان من الأفضل أن تتوقف السفن في مسقط، وترسل محتوياتها بالزوارق إلى عبدان ومن هناك تحملها الدواب إلى إسطنبول في طرف أوروبا، لكن أعمال رحمة في خليج البصرة عرقلت ذلك، لذا عمد البعض إلى نقل المنتجات براً من مسقط عبر بلاد العرب، لكن تلك القوافل تتعرض لهجمات "رحمة" الذي يستثني من يدفع له مقابل المرافقة والحماية، ويتقاضى ما يسمى رسم أو إتاوة "الأخوة" ومن لا يدفع يتهم بالكفر وأنه مرتد، يحق سلب ماله وإهانة كرامته بالسب أو الضرب أو القتل، ويدعي أن الدرعية تجيز له ذلك وتأخذ حصة من الدخل، أدت تلك الأعمال لاستفزاز العمانيين فقاموا بالهجوم على آل خليفة، لردعهم عن التعرض لقوافل التجارة المربحة، فسارع رحمة للاستنجاد بالدرعية، فأرسل الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود عدة كتائب مسلحة بقيادة رجال من العارض مثل المزروع والعفيصان، وهزموا العمانيين وتعين سلمان بن خليفة حاكم للبحرين الواسعة يساعده رحمة. بعدما قتل الإمام في الطريف ارتجت الأمور قليلا، لكن ولده سعود سيطر على الحال، فاستغل رحمة علاقته معه وسعى لبسط نفوذه في المنطقة، لهذا حدث انشقاق بين رحمة والقواسم من جهة، وآل خليفة وآل صباح وآل بوسعيد من جهة أخرى. تضجر الجميع من تجبر رحمة وتدخلاته في طرق القوافل، وقرروا القضاء عليه متعاونين مع النصارى، لكن رجل الدرعية كان يرى فيه شيء آخر غيرهم، فهب لنجدته بجيش غفير من مقاتلي العارض، وسانده بقوات تقيم عنده من أهل الأفلاج والحوطة ومنفوحة وأشيقر، مما أدى إلى انكسار معارضيه، بل تمكن من السيطرة على مناطق المناوئين له، فانحسر نفوذ آل خليفة نحو المحرق، وتقهقر آل صباح عن القطيف والصمان واكتفوا بكوتهم قرب مشهد الزبير، أما آل بوسعيد فلما رأوا تزايد سيطرة السعوديين على جنوب البريمي، والجبال الساحلية في بلادهم قرروا الرضوخ وتوجه بعضهم للدرعية، لكن أبو شوارب شك في مبايعتهم له وخشي نكثهم بالعهد، فاستضاف عنده بعض من أمراء عُمان والبحرين والكويت، ولم يطلق سراحهم إلا بعد شهور، مما زاد في نفوذ القواسم ورحمة. تضجر الكثير من تلك الأوضاع البائسة لتجارتهم ونفوذهم، وأولهم الإنقليز الذين كانوا يعانون تقلص سيطرتهم، ويعادون الألمان (بروسيا) والأسبان والأمريكان المنسلخين مؤخراً عنهم، لذا سارعوا بتشغيل قواهم الماكرة ودسوا أصابعهم الماهرة في مواطن قوة وضعف الآخرين، فبدأوا باسطنبول حيث اضطرابات السلطنة والإنكشارية، ولما خلع السلطان ونُصِب محمود الشاب المتوثب لاستعادة مجد أجداده (آل ارطغرل) زينوا له مقاومة المد السعودي في بلادهم، ووعدوه بدعم ذلك بالسلاح والمال، لذا وصلت قوات عثمانية جرارة إلى ينبع، بقيادة ابن والي مصر الألباني الخبيث. لم يهنأ سعود بتزايد رقعة إمارته سوى سبع سنوات، حيث بدأ جيش الترك وأعوانه في إخراج مقاتلي التوحيد من الحرمين الشريفين، ثم زاد المدد بوصول محمد علي القوللي، وتم القبض على رجال المقاومة في جبال عسير وتهامة

واعدامهم. ما هي إلا شهور حتى وصل الغزاة لمشارف القصيم متجهين للدرعية، وفي تلك الفترة الحرجة مات فجأة وبمرض غامض، الإمام سعود بن عبدالعزيز رحمه الله، وتدهورت الحال من سيء إلى أسواء، وبقي رحمة في الساحل الشرقي يلملم ما بقي من رجاله، ويهادن مناوئيه ويتساهل مع الروافض (البحارنة) ويتباحث مع الخوالد في ثمن تأييده لعودتهم لحكم الأحساء. قرر ذلك الداهية أن سقوط الدرعية سيؤدي لضعفه، لذا قرر سرعة بناء حصن كبير قوي يحتمي فيه من هجمات أعدائه، وقد تم ذلك في شهور قليلة وسماه "قلعة البشر" في منبسط من الأرض جنوب القطيف وراس تنورة، وأحاط سوره بأبراج للدفاع وفتحات للمدافع وبداخله بئر ماء عذب، وسمح لمن يرغب السكنى قربه من أهل السنة بإقامة منازل مبسطة بجواره، وكان يرتب أموره حسب التنظيم الإنجليزي الذي شاهده في بومباي، حيث كل صباح تخرج ثلة من جنوده في عرضة عسكرية يصطفون بسيوفهم وبنادقهم، ثم يدورون حول الحصن يقودهم ضابط بلابس مزركشة ومشاة، وأمامه قارعوا الطبول في مشهد مهيب للبسطاء، الذين سمعوا دمدمت الطبل فسموا المكان الدمام الذي أمسى مدينة عامرة. قال له أحد الجالسين بأن أهل الجنوب (اليمامة) أكثرهم لا يحبون الناصحين، فيرون النصح مسبة والعتاب عداوة، فرد عليه الجد إنه يعوذ بالله أن يكون مثل قوم صالح، وماذا عنكم يا أهل الشمال (سدير) فالله أعلم بما تصفون. تبسم الاثنان فقال السديراوي لقد تعاملت مع رحمة سنين، وهو حاليا في وضع حرج بعد أن قام الخوالد المتآمرين مع الباشا، بالغدر بديارهم وجاءوا مع عساكر الترك ليستردوا حكم الأحساء والقطيف، لكن أوامر الباشا نصت على جلب الأموال وعدم اثارة الأهالي بخلع القادة السابقين. وانصحك إذا دخلت عليه أن تزيد في ميل رجلك المصابة، حيث سيلح عليك أن تنضم في صفوف جنوده، عندما يرى طولك الفارع وقوة عضلاتك، وأن تقول له أنك من أولي الضرر وأصابتك لم تبراء بعد، وألا تسرد له قتالك في الدرعية فيتشبث بك. ثم أضاف أن لديه أمر ثاني هو تفادي إخباره بأنك ستتعامل في البضاعة اللازمة لأهل العارض، فهي سلع بسيطة لا يحصل على مبالغ كبيرة من مكوسها، بل قل له أنك ستعمل في نقل مستلزمات الأثرياء، مثل الزعفران والكافور والمصطكة والرواند، كما ستجلب العود المندلي والمسك واللوبان والحرير وفراء ناعم، وغيرها من سلع ثمينة تنقل إلى القصيم ومنها للشام ثم إسطنبول، حيث يفرض عليها مكوس تحقق عائد جيد.

شكرهم الجد على أخبارهم المفيدة، التي جعلته يتوق لمقابلة ذلك الحاكم ذو المزايا والتاريخ الحافل بالحوادث، وتمنى أن يتمكن من لقائه أو أحد مساعديه قريباً، لبحث الحصول على "تعريف" يخول له المسير عبر بلاده في أمان، قال له ذلك الرفيق أنه قد علم بغياب رحمة بعيداً ليومين، ونصح الجد أن يرتاح حتى يدبروا له لقائه في المجلس. دارت في خلد الجد علي عدة أسئلة حول شروط التعريف، وأنبأه أحد المصاحبين أن الوضع في القطيف حاليا مضطرب، حيث لا يطمئن آل عريعر لأقاربهم ناهيك برحمه، والآمور تتبدل بين جمعة وأخرى ونصحه بعدم ممارسة التجارة الان،

بل الأفضل العمل في الصيد والغوص، حتى تسكن الأحوال وتتبين الأمور. في المجلس ازدحم الكثير من الحضور، الذين خمن الجد أنهم من رجال الحاكم، لكنه صدم من مظهر رحمة، الذي يتلعثم في الحديث بسبب تشوه في فمه يسيل منه لعاب، كما لاحظ ضعف بصره مع أثر ضربة قوية عند عينه اليمنى، مع عدة ندبات وبقايا جروح على يديه وقدميه، أما ثيابه فتبدو أدنى مما يليق ويتمنطق بخنجر وفرد، لكن ما يثير الدهشة هو ذراعه الأيسر الذي لا يطيق تحريكه إلا باليمنى، ويتلوى الذراع والعضد بشكل غريب، وبدا كما لو أنه تعرض لكسور مضاعفة لم تعالج بشكل صحيح. لكنه لما تحدث بدا عليه الوقار ومعرفة بكتاب الله، ويستشهد بأشعار فصحى ونبطية وأمثال نجدية وعراقية، أما جلسته فهي حازمة مستقرة ويبدو أقوى من سن السبعين، واقترب منه الرفيق مع الجد ولما تعرف عليه حياه بالبشر والحميمية، وأثنى على سبيع وكافة بني عامر واخلاصهم، وأمر أن يأتيه في المختصر بعد الطعام. كانت الديوانية متواضعة مع خليط من نمارق مزركشة ثمينة غير متناسقة، إلا أن الجد تأفف عندما اداروا على الحضور لفائف التبغ، ولاحظ أن رحمة يدخنها بشراهة، ثم أشار لخادم فأحضروا له غليون عجمي، أخذ يستنشق ما فيه عبر أنبوب ملتوي، ثم ناوله للجالس على يمينه، وبعدها جاءه خادم يحمل جوزة هند كبيرة، في أعلاها بوصة على رأسها كأس صلصالي فيه جمر، ثم "عمره" بأن وضع عليه مكورة داكنة اللون فاحت منها رائحة غير كريهة، وقد برز من جانب الجوزة عود مجوف، أخذ يسحب منه أنفاس ثم ينفثها في الهواء، فتعجب الجد من ذلك وما اذا كان أبو الشوارب يجيزها لأتباعه؟ أو أنه مما استجد بعد موته. في المختصر قليل من الأعوان وبعض المتعاملين، ويحادث كل منهم همساً وهم وقوف جواره، ولما حادث الجد زاد من ترحابه وعرض عليه أن يعمل في معيته، حيث لديه أفضل السلاح وأشجع الرجال وكثير من المال، وبين حبه لأهله من العارض، وأن كثير من مقاتليه من المعاضيد والهواجر وبني مرة والعجمان والقحاطين (بني زيد) وهو يرحب بمن يأتون من الخرج (الحوطة) وسدير والوشم (أشيقر) ويكرمهم! لكن الجد تباحث معه حول عمله في التجارة، فأوضح له الأمير أن الكثير من عشيرة السبعان استوطنوا في المنطقة، منهم رجال من الزكور في القطيف، وأحد كبار التجار مع الهند من آل فيحان، ولديهم النوخذة حرفان الذي معه حشد من الغواصين والطواويش، وأهل القطيف على اختلاف مشاربهم يحبون السبعان، لما رأوا فيهم من الحكمة والكرم وحسن التعامل مع الجميع وقلة الحزازات بينهم، وعدم حبهم لإيذاء الغير بل يتعاملون بأريحية وعدالة. بعد المداولة أفاده أنه سيمنحه تعريف للمرور في منطقته هو والسعدون، والتي تقع بين سلوى جنوباً والعرمة غرباً، ويتقاضى المعتاد وقدره نصف العشر وإكراماً له سيكتفى بثلث العشر مع تساهل في التثمين، وسيعد خازنه كتاب بهذا بعد يومين، شكره الجد وغادر بدون افصاح عما إذا قبل الشرط.

في مقر سكناهم أبدى الجد دهشته من أحوال رحمة العتبي ومظهره البائس، ومجاهرته بمعاقرة منكرات ومظهره العام، فبين له البعض أن الرجل صدوق شجاع جواد ولا

يعيبه مرأى حاله، وقال له آخر إن الأمور تغيرت في الشهور الماضية، وما خفي كان أعظم فالتحالفات والمهادنات فرضت تبدل الحال والخلق، إلا أنه يجب عدم انكار دوره الفعال في توطيد الحكم السعودي في شرق جزيرة العرب، وعلاقته الوطيدة مع آل خليفة والخوالد. اقترح عليه اثنان التوجه صباح الغد لمشاهدة يوم السوق الكبير في القطيف، مادام أن هذه هي المرة الأولى التي يزور فيها البلدة. شاهد عدد كبير من الحوانيت تبيع أصناف منوعة من البضاعة، وجمهرة غفيرة من الجائلين يحملون أطعمة وثياب، يعرضونها على الرواد بأسعار زهيدة، وآخرون يفترشون الأرض معهم سلع تبدو تالفة أو مسروقة، وقد اختلط الرجال مع النساء والصبيان في حركة دائبة وزحام، وتسير الدواب في المكان تحمل الناس أو المبيعات، بينما يعلو الغبار ويحوم الذباب والبرغش بكثافة مؤذية. لكن أكثر ما أثار دهشته مكان منزوي ساقه إليه صحبه، كان فيه غرف نظيفة تفوح منها روائح معطرة، ثم سأله أحدهم هل تريد الملا أو المقدم؟ فسأل عن كنه ذلك المجهول فأفاده أن هنا رجال على ملة أهل البيت النبوي، يزوجون الفتيات على شرط المتعة لأجل يحدد سلفاً، وآخرون على نظام النخاسة فتشترى الأمة ثم يعاد بيعها بعد انتهاء الغرض، تعجل أحدهم بالسؤال عن مدة الاستبراء لدى ذو العمامة، واكفهر وجه الجد غضبا لأن المسلم لا يفعل هذا، ولا يتحايل على الفاحشة كما يتحايلون على الربا، أو كما فعل أصحاب السبت فحل عليهم سخط خالقهم. لكن بعضهم قال إن كتاب الله قد أجاز ذلك لمن خشي العنت، وقد مضى على فراق أهلنا فترة نعاني فيها ونخشى على أنفسنا الوقوع في الحرام، فهرول الجد مغادرا ذلك المكان الخبيث يحوقل ويسترجع. وفي المساء جلسوا يتداولون الأمر، وأصر البعض على جوازه حسب قول بعض أهل العلم، وكما شرح لهم أحد أصدقائهم المحبين، فنهرهم الجد أن ذلك شيطان مريد يزين لهم السيئات، وبعض المتاجرين بالدين يتكسبون من فتاوى تجيز أمور فاسدة، بخاصة في الصيرفة والأشربة والانكحة، وعلى من يخاف الله أن يبتعد عن شبهات الأعمال، ومن أوعز لهم بذلك ليس صديق ولا حميم، بل هو عدو لئيم لن يحمل شيء من أوزارهم يوم القيامة، وإن حمى الله محارمه وعلى كل مسلم تفادي أن يحوم حول محارم الله، ثم أنشدهم قول الشافعي في نصيحته: ـــــ

لم يقبل أكثر الجالسين ذلك فاحتدم الجدال، لكن أحد الأشراف أراد أن يخرجهم عن المسألة فقال إن تلك الأبيات ليست للشافعي، بل هي مقتبسة من قصيدة الزينبية التي نظمها جده علي بن أبي طالب، فنفى آخر قوله وذكر أنها من قصيدة لابن عبد القدوس، ورد عليه ثان أن ذلك كان زنديقا لا يكتب مثل هذا، وقد أعدمه الخليفة العباسي المهدي، فختم الجد حديثه بالقول إن كلا يعمل على شاكلته. في اليوم التالي ذهب لديوان الأمير رحمه، حيث كرر الترحيب به وقال أنه أعد له خطاب تعريف للمرور على مناطق نفوذه بأمان، ومكتوب لوكيله في الشارقة يوصيه لتقديم ما يحتاج من مساندة في تجارته، كما أفاده أن لدى الخازن نقود يستعين بها في سداد مشترياته، كقرض حسن يرده عند تحصيل المبيعات، شكره الجد على أريحيته وكرمه، واعتذر عن قبول المال

رغم عدم استغنائه عن عطف الأمير، حيث دبر ما يكفي لتلك المرحلة ولا يريد التوسع في العمل إلا بعد ثبات جدواه، وعند الانصراف أعاد الرجل اشارته لأهمية الانخراط معه في العمل على مكافحة الأشرار الساعين لإفساد الديار.

لم يعثر الجد على قافلة آمنة للسفر للشارقة، لانشغال الكثير بالحج ووجود شطار في الطريق، ولحاجته الماسة لمغادرة القطيف عاجلا توجه للهفوف، فنزل هناك في مكان يعرفه منذ القِدم، حيث تجول في أسواق أهل السُنة، والتقى مع بعض المعارف من الفُرع وآخرون من سبيع، لكنه لم يجد بضائع بسعر مجزي، فبقي معهم ينتظرون فرج الله وتحسن الحال. جاء قادم من نجد بنبآء غير يقين، أن عساكر الترك غادروا الدرعية في العيد، وتوجهوا نازلين من عقبة الحيسية نحو القصيم، وبقيت حامية منهم في الوشم، وأن شاب يقال له مشاري المعمر قد أرسله أبوه من العيينة ليضبط أمورها، ومعه كتيبة مسلحة وكثير من الطعام الذي غدا شحيحاً في وادي حنيفة، وباعه بسعر منخفض وتصدق ببعضه على المحتاجين، الذين قرصهم الجوع في الشهور الماضية، فاستبشر الناس به وانصاعوا لأمره. سأل أحدهم عمن يعرف شيء عن ذاك الفتى مشاري، وقال الجد أنه ربما يكون حفيد مشاري الأول، الذي قص عليه جده حمد أنه شاهده مع الإمام محمد بن سعود قبل سبعين سنة، وكان مقرب له ويتولى قيادة بعض السرايا والغزوات، كما أنه متزوج ابنة الإمام محمد وله منها ولد يسمى محمد، وأوضح لهم أنه قد شاهد ذلك الابن في مجلس الإمام سعود (أبو الشوارب) قبل عشر سنوات، وكان مقرباً منه حيث هو ابن عمته ويبدو أنه يثق فيه كثيراً، وقد حصل على نفوذ كبير في بلدته والقرى المجاورة لها، من الوصيل والجبيلة وسدوس والحيسية وغيرها، فربما أن مشاري هذا هو حفيد مشاري الأول صهر أمير الدرعية، بقي القوم في حيرة حول ذلك الحاكم الجديد للدرعية، وهل انقضى دور ذرية محمد بن سعود؟ بعد أيام جاء عندهم رجل من أهل المحمل، وقال إنه يعرف الأمر جيداً وخلاصته أن عثمان المعمر بعد أن قُتِل في مصلى الجمعة، اضطربت الأمور في العيينة وهاج بنو تميم وأعدوا للبطش بالباهلي والقتلة، وغضب الإمام محمد بن سعود لذلك، حيث كانت الدرعية ما زالت ضعيفة، وعاجزة عن مكافحة دهام على بعد ساعات جنوبها، وليس من الحكمة فتح جبهة ثانية على بعد ساعات شمالا، لذا أمر الشيخ محمد بن عبدالوهاب بسرعة التوجه للعيينة لتهدئة الأمور في بلدته، ولما وصلها وجد هرج ومرج وكانت معه زوجته (جوهرة المعمر) وكادوا يفتكون به لولا حكمة تلك المرأة الصالحة، التي سبق أن أنقذت الأمير محمد بن سعود من القتل على يد آل معمر، أثناء وليمة خرفاش الكريهة، فقامت بالتوسط في الأمر بترتيب ما، وجرى تعيين أحد أقاربها (مشاري) أميراً على العيينة بعد عثمان الشهيد. ولما عاد السكون رجع الشيخ معه للدرعية، وقد أعجب الإمام محمد بن سعود بحكمة وشجاعة مشاري، فأولاه قيادة بعض المعارك، كما أن علاقة جوهرة المعمر مع موضي الكثيرية، زوجة الإمام ابن سعود أدت إلى توطد أواصر العلاقة، فتزوج مشاري المعمر من نوره بنت الإمام، فغدا الصهر من أقرب المشاورين لحاكم

الدرعية، والمساهمين في توسع حدود إمارة الدرعية. وبعد سنين نشأت أمور أدت إلى تخلي مشاري عن مقره في الدرعية، وعاد لبلاده وسكن في سدوس، إلا أن ولده محمد كان على علاقة قوية مع أخواله أولاد ابن سعود، واستمر مقيماً في الدرعية يكتسب المزيد الثقة، بخاصة بعد مرض خاله الإمام عبدالعزيز بن محمد، فلما زاد نفوذ الأمير سعود بن عبد العزيز، أخذت مكانة محمد بن معمر تتسامى، حيث كان سعود لا يثق كثيراً في أقاربه سواء من أولاده أو اخوته أو أبناء عمه عبدالله، بل يثق في قرابة الرحم وعلى رأسهم محمد بن معمر ابن عمته. وبعد وصول القوات العثمانية إلى الحجاز وإخراج قوات سعود منه ثم وفاته، تولى ولده عبدالله الذي لم يكن على وفاق مع ابن معمر، لكنه لم يستغني عن مشورته وحكمته في تلك الفترة الحرجة، حينما تقدمت قوات الأتراك في نجد، ولما أحكم الباشا حصاره على الدرعية، رأى محمد المعمر ومعه عدد من ذرية الإمام محمد بن سعود، وذرية الشيخ محمد بن عبدالوهاب، أن السبيل الوحيد لتلافي حدوث مأساة هو مصالحة الباشا، لكن الحاكم الشرعي (الإمام عبدالله بن سعود) المشنوق رفض ذلك وظل محاربا حتى هُزِمَ واستسلم وقتل، فذهب محمد المعمر إلى بلدته (العيينة) أميراً، يحاول تخفيف معاناة الأهالي من وطأة الاحتلال التركي، ثم ها هو الآن بعد أيام من جلاء أقارب الباشا عن الدرعية يرسل ولده (مشاري الثاني) ليتولى إدارة شئون عاصمة البلاد، لكن الجميع في حيرة عما اذا كان ذلك بوازع من الحرص على سلامة ورفاه الديار، أو أنه سيكون مخلب هر ضد أهله يعمل لصالح العدو العثماني. ثار لغط وجدال حول كثير مما طرحه الرجل، وقال أحدهم أن علينا احسان الظن بالمعمر وولده، فليس هناك بديل مادام أن كافة ذرية الإمام والشيخ هم الان قتلى أو أسرى أو هاربين، وقال آخر إن مشاري المعمر ووالده هما أفضل خيار لدينا، فجذورهم عميقة في الوطن الذي تأسس على التوحيد، فهما من سلالة ابن سعود (والدة محمد المعمر) وسلالة ابن عبدالوهاب تنحدر من عمته (الجوهرة المعمر) لذلك فمن المستبعد أن يعملا تحت إمرة الترك بما يضر أهل ديارهم، أما الجد فبقي صامتا يفكر في سبل تمييز الظن عن الحقيقة فيما سمعه من أحاديث غير متسقة.

أخذ الجد يفكر في سرعة مغادرة الأحساء، ونصحه البعض بالتمهل حيث زاد اضطراب الحال بعد حركة آل معمر في الدرعية، الذين هم أعداء ابن عريعر الخائن مع الترك، مع جهلهم بوضع المعمر وما إذا كان هو أيضا متعاون معهم، لكن ما لاحظه الجد هو كثرة تحركات عساكر الخوالد ووصول المزيد من المدد لهم. ثم اتضح له أن حاكم الأحساء يبحث عن رجال يساعدونه في غزو الدرعية ليقضي على ابن معمر، فتوارى الجد عن الأنظار ليتجنب المشاركة في حرب أهلية، يقتتل فيها المسلمون في نزاع على العلو والجلوس على كرسي السلطة. في الشهر التالي عم الجزع والقنوط الأحساء، حيث تبين أن مشاري المعمر نجح في جلب البيعة لأبيه، من بعض قرى العارض فدانت له منفوحة والحبونية، ومعظم قرى سدير ما عدا حريملاء التي انقسم أهلها بين مؤيد ومعارض واقتتلوا، لكن المعارضة الشديدة جاءت من العايذي حاكم

حجر اليمامة، ومن قريبه زقم الزامل حاكم جنوبها، فأعدوا عدتهم لاستقبال جنود العريعر والتوجه معهم نحو الدرعية. إلا أن مشاري لم يبقى مكتوف اليدين قابعاً في الطريف، فقد خرج نحوهم بجيش عرمرم من مؤيديه في العارض، والتقى مع مناوئيه غرب منفوحة وجرت معركة شديدة حارب فيها ببسالة، حتى كسر جموعهم ولاذ معظمهم بالفرار وقتل وأسر عدد منهم وغنم الكثير، بينما عاد العريعر للأحساء خائباً هارباً، يفرض الضرائب لتعويض خسائره. لقد أدت تلك النازلة إلى سطوع نجم المعمر، مما دفع بعض رفاق الجد لشد الرحال نحو الدرعية للعمل معه، لكن الجد بقي على رفضه المشاركة في الاقتتال بين المسلمين، وأخذ يحزم أمتعته للتوجه للشارقة.

أوصاه أحد الصحب بعدم الذهاب بعيدا للشارقة عند الأشراف، فقد يناسبه الحال في قطر (سلوى والزبارة) القريبة، أو يتجه نحو رأس الخيمة حيث مزيد من البضائع تحت إشراف الإنكليز، ثم همس في اذنه أن كثير من قرابة ابن سعود (الإمام المشنوق) وذرية الشيخ محمد (عبدالوهاب) مختبئون هناك. بقي الجد في حيرة فوجوده في الأحساء في الظرف المضطرب غير مجدية، وعودته للحريق خالي الوفاض غير مُشرّفة، وبينما هو في التفكير سأل خالقه الرشاد للتدبير، وجاء الفرج عندما بلغه نباء مؤكد أن الأمير تركي بن عبدالله (حفيد الإمام المؤسس محمد بن سعود) قد ظهر فجاءة في الدرعية بصحبة أخيه وبعض الأقارب، ومعهم كوكبة من فرسان العجمان، لذا كف عن التفكير وباشر يضف أغراضه ليغادر المكان، ليعمل مع أفضل من بقي من آل سعود، والذي سيتولى إمارة الدرعية ويعيد بناء ما تهدم منها، ثم يتعامل مع العثمانيين بالحكمة بما يضمن مغادرتهم نجد. وبينما هو ومجموعة من رفاقه يعدون للرحيل إلى الدرعية، وصل قادم من نجد معه خبر غريب، وهو أن الأمير تركي بن عبدالله ومرافقيه من القرابة، التحقوا مع بقية أهل العارض في مبايعة محمد المعمر ليكون إمام البلاد، وقد تقاطرت الوفود نحو الدرعية من سدير والوشم للمبايعة، بينما عادت بشائر الازدهار للعاصمة وتوفرت الأطعمة، وبداء آل معمر في ترميم بعض البنايات والقصور التي هدمها الباشا، بينما لم يجر اصلاح أي جزء من السور أو الأبراج. وسط دهشة البعض من مبايعة آل محمد بن سعود للمعمر، وعن الدور الذي سيضطلعون به في المرحلة الحرجة القادمة، لذا قرر عدد منهم تأجيل سفرهم حتى تتضح الأمور، وناشدوا الجد بذلك لكنه رفض قائلا إن ما قام به الأمير تركي يؤكد اخلاصه، وأنه لا يبحث عن منصب أو تعالي بل يريد الصلاح للبلاد والعباد بغض النظر عمن يتولى الإمارة، ومع ذلك استمر الكثير يلحون عليه للبقاء في الأحساء أو العودة للحريق، لأن الذهاب للدرعية في هذا الوقت الحرج ليس فيه مصلحة. إزاء ذلك قرر التوجه لمسكن أحد حكماء أسرة آل خثلان، حيث تباحثا في أحوال البلاد والناس، إذ قال له إن ظهور الأمير تركي في الدرعية بعد انعقاد البيعة للمعمر، كان مفاجئة لكن ما ورده عصر ذاك اليوم أكثر غرابة، فقد وصل للدرعية الأمير عمر بن عبدالعزيز عم الإمام المشنوق، وهو في محل أبيه أي أنه يستحق ولايته، ولا نعلم ما اذا كان قد بايع المعمر

أو لا؟ لكنه توقع أن يبايعه لسببين أولهما أن مشاري وأبوه قد حازا مكانة رفيعة بعد انتصارهم المبين في منفوحة، وقد دانت لهم بلدان نجد ما عدا قلة مثل العايذي وزقم والراشد، لذا فقد لا يتنازلون بسهولة للعائدين بعد الهزيمة والفرار، السبب الثاني هو أن الوضع الحالي أمام الترك يستدعي الخزي والخيبة، فربما لن يرى آل سعود من مصلحتهم مجابهة ذلك، فقد يركنون للتظلل بالمعامرة ريثما يتضح حالهم مع العدو، وبعد ذلك يكون لكل حادث حديث، وفي النهاية كانت زبدة القول أن يتوجه الجد علي للعمل مع الأمير تركي، الذي عرفه جيدا خلال شهور الدرعية، وينتظر جلاء رؤية الحال ثم يقرر ما عليه أن يعمله.

عندما وصل الدرعية وجد حركة نشطة لإعادة تعمير بعض المساكن التي دمرها عساكر الباشا، الذين يتواجدون في البلدة بكثافة أعلى مما هو في الأحساء، لكنهم يلزمون حد العرف ولا يتعرضون للأهالي إلا إذا حدث ما يعكر السكون. لم يكن الجد على معرفة سابقة بالأمير عمر ولا بآل معمر، فتوجه نحو مكان الأمير تركي الذي احتفى به، ولما علم أنه كان في الشرق للتجارة تأسف لذلك، وأمر بتزويده بعتاد الحرب وأن يبقى في هدوء حتى تتبين الأوضاع. لاحقاً علم من أصهار الأمير من ضرما الذين التقاهم في مجلس أحد السبعان، أنه كان مختفياً عدة شهور لدى العجمان، وأنه تزوج هناك ورزق بطفلة وهو على علاقة وطيدة مع آل جازع وآل ذعار، ورهط من آل شامر في صحبته هو وأخوه الآن في الدرعية. بقي الجد في سأم حيث البلدة تعاني شظف العيش، والأمن غير وارف وحالة الناس كريهة، وراودته نفسه للمغادرة لعدم جدوى البقاء، رغم اكرام الأمير تركي له وتقريبه منه، واشراكه في بعض الأعمال وتكليفه القيام بأمور خاصة، لكنه كره حالة البؤس والوخم هناك. في عصر أحد الأيام كان في مجلس الأمير تركي ومعه لفيف من أقاربه من ذرية المؤسس (محمد بن سعود) ومن ذرية أخيه آل مشاري بن سعود، حينما جاء مرسول من عند المعمر يفيد أنه يدعو للتجهز للمسير نحو حريملاء، وذلك لحل إشكالات حدثت هناك بين الأهالي، لما استفسروا منه عن طبيعة الوضع وتفاصيله، رد بأنه لا يعلم عن ذلك ويقوم فقط بالدعوة، لذا قرر الأمير تركي أن يرسل أحد قرابته معه للقاء المعمر، وأثناء غيابهم تداول الجالسون حول ذلك وتباينت الآراء، وكان رد الجد علي أن ينزه نفسه عن الخوض في نزاع أهلي على السلطة، مع التركيز على مجابهة العدو الأجنبي الذي حل في البلاد، وقرر الأمير التريث لحين عودة مرسوله، ثم أفادهم أنه لن يذهب مع المعمر، لكن من يرغب الذهاب فذاك شأنه. شعر الجد بوجود صدع في علاقة أطراف الحكم في الدرعية الجريحة، التي لا تتحمل مزيد من البلايا الداخلية، وفي اليوم التالي تبين أن محمد المعمر قرر عدم الذهاب، وأرسل ابنه مشاري مع فرقة من جنوده إلى حريملاء، الذي عاد بعد أيام مزهوا بنصر كاسح ضد مناوئيه، مما فرض على الكثير المزيد من الرضوخ له.

في الشهر التالي ثارت أقاويل بأن الأمير مشاري أخ الإمام المشنوق (أحد أبناء أبو شوارب) قد وصل الدرعية ليلا، بعد أن هرب من الترك بصحبة رجال مسلحين من قبائل عالية نجد، وترافقه قافلة فيها طعام وثياب ومعه مال وفير، ثم سانده بعض مماليك أبيه للتوجه نحو مقر محمد بن معمر، الذي لأمر ما رضي بالتنازل له عن الإمارة! دُعي الناس لمبايعته وتوجه الأمراء تركي وزيد وعمر (حفدة الإمام المؤسس محمد بن سعود) وبقية آل مقرن لمبايعته. اندهش الجد والكثير عن كنه ذلك الأمر، ولماذا سارع محمد المعمر بالتنازل رغم غياب ولده مشاري خارج الدرعية، وما هو موقف الترك من الأمر، وبعض عساكرهم يرون ذلك ولم يحركوا ساكنا ضد الهارب؟ بل يتجولون في أمان يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، يتجبرون ويبطشون بأهل البلدة لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، يبغضون عرب الجزيرة وينكلون بهم لأدنى سبب، وعرب العراق والشام واليمن ومصر والمغرب يعانون من الصغار أيضا، وهم ليسوا إلا أجراء عند الترك البغاة، والنصيحة هي "اتركوا الترك" وتجنب ما قد يستفز مشاعرهم البذيئة، والجد يسترجع داعياً الله ان ينزل عليهم ما يستحقون. ورغم هذا فقد تمنى البعض أن تسير الأمور نحو الأفضل، بعد وصول ولد "أبوشوارب" وما أبداه فور مباشرته الحكم، حيث تقرب للعامة بتوفير الغذاء والكساء، أما الخاصة فقد أخذ يعين البعض منهم في وظائف عليا، فجعل محمد المعمر رئيسا على سدير والمحمل يقيم في الدرعية، وولده مشاري يتولى قيادة الحرب، ومنح آل سويد شيخة على جلاجل، كما جعل عمه عمر المستشار المقرب، وابن عم أبيه (تركي عبدالله) أمير على اليمامة، وبذلك بداء يفرض نفوذه على وسط جزيرة العرب، يدبر أمور البلاد ويبسط الأمن ويحاول ترميم بعض خرائب المباني والمزروعات، ويهادن الترك ولا يثير سخطهم ولا يسمح لأحد بالتعرض لمراكزهم في حنيفة والوشم والقصيم.

كان مشاري المعمر صاحب الكلمة المسموعة، وابن سعود معجب بحسن تدبيره وسداد رأيه وفطنته، لذا أوعز اليه بوجوب القضاء على سلطة آل عايذ وقرابتهم في الرياض والخرج، حتى تصفو له نجد كلها، وحيث أنه من تمكن من القضاء على نفوذ حريملاء قبل شهور، فقد عهد إليه ترتيب هجوم عليهم لإخضاعهم لسلطانه. تشاور الأمير تركي بن عبدالله مع رفاقه حول مشاركته في ذلك، وانقسم القوم بين مؤيد ومعارض، وقد كان يثق في رأي السبعان ويقربهم لما لديهم من اخلاص النية والقول، وقد أشار بعضهم عليه أن يشارك على طرف أيمن، فما دام أنه حاكم العارض فليتوجه لحاير سبيع على بعد ساعات من الرياض، ليساند الهجوم ويمنع وصول امدادات للعايذ ويعرقل هروبهم بعيداً، وقد أيد الجد ذلك بحماسة فهو يتيح له مشاركة بعيدة، بدون الخوض في دماء المسلمين لأجل حصول الغير على المقام العالي، كما أكد الجد أنه وأسلافه يعرفون آل عايذ، الذين يحكمون بالنزاهة رغم عشقهم الشديد لتولي الحكم، ولا يود التعرض لدمائهم إلا دفاعا عن النفس. لذا فقد استقروا في الحائر يتسمعون الأنباء، فبلغهم أن حاكم الرياض قد هرب منها فور علمه بتوجه الزحف نحوه، وربما

أنه توجه لمقر الترك في الوشم. ثم توجهوا بقيادة مشاري (ابن سعود) وتدبير مشاري (ابن معمر) نحو الخرج، حيث التجاء ابن زامل العايذي للسبعان في المحمدي، الذين توسطوا لدى ابن سعود أن يقبل منه البيعة على السمع والطاعة، ويرحل معهم مكرماً للسكن في الدرعية. استقر الأمير تركي بن عبدالله وصحبه في قصر دهام بالرياض، يتولى الإشراف على كافة أحوال إقليم اليمامة، وبعد فترة شعر الجد بحاجته لزيارة أهله، ومتابعة أحوال أملاكه في الحريق ونعام والحاير، وأذن له الأمير تركي بالمغادرة لشهرين لكنه بعد المغرب استلحقه، فأخبره أن عليه التوجه بصحبة فرقة من المقاتلين نحو عقبة ديراب، لصد عساكر الترك القادمين لوادي حنيفة من الوشم، وعليه أن يحضر مع خُبرته بعد الفجر للقاء قائد الغزوة أخوه الأمير زيد بن عبدالله بن محمد بن سعود. أقاموا كمين للعدو على مسيرة ساعتين جنوب ضرمى، ثم جاءهم سبور بالقول أن كتيبة حاشدة متوجهة نحوهم، وأن بعضهم انفصلوا عنهم وصعدوا عقبة الحيسية متجهين نحو سدوس، والبقية يسيرون نحوهم على عجل فشاهدوهم عند الظهر، حيث توقفوا لإعادة تنظيم حالهم، فخرج نحو ثلثهم راجلين معهم بغال تحمل الزاد والعتاد، وتوجهوا شرقاً يحاولون صعود الجبل من درب "أم قديد" الوعر، أما البقية فساروا نحو الجنوب جاعلين طويق على ميسرتهم، فأمر القائد الجميع للتوجه نحو الجنوب الغربي، حيث اختبأوا في أحد الشعاب البعيدة، وبقوا فيه حتى بعد العصر حيث غدت الشمس خلف المجاهدين، وفي مواجهة البغاة الدخلاء مما عرقل الرؤية في أعينهم، ولما اقتربوا منها باشروا الرماية وهم على صهوات جيادهم وركائبهم، فأوقعوا فيهم خسائر جمة وسقط عدد غفير من العساكر بين قتيل وجريح، لكن قائد الأتراك أمر جنوده بالترجل والانبطاح أرضاً ورشق أهل التوحيد برصاص بنادقهم القوية، لذا وجه الأمير زيد رجاله بالنزول والتستر وراء كثبان من الرمل، بينما تسلل بعض الفداوية نحو ميمنة العدو وأخذوا يهاجمونه بالخناجر، بينما البقية مستمرون في رماية العدو من على بعد. كان الأمير زيد بن عبدالله ذو حس مرهف وفطنة واعية، وقد خشي أن يسمع أفراد العدو الذين صعدوا أم قديد صوت الرماية، فيتقهقروا لمساندة رفاقهم فرتب إرسال ثمانين رجلا للتوجه نحوهم، واشغالهم في السفح ومنع التحاقهم بالمنازلة، وقد عرض الجد أن يلتحق بهم لكن الأمير أراده أن يكون قربه، وأمر أحد مماليكه أن يتولى القيادة ونصحه بعدم تسلق التلال خلف العدو، حيث أعد أخاه فخ في الأعلى يؤمل أن يقعوا فيه. عندما وقب الغسق لاحظوا أن عسكر العدو أخذوا يلملمون متاعهم، ويسحبون جرحاهم منسحبين صوب الشمال، ولما اشتد الظلام بعد غياب الشفق، لم يعد يسمع من موقعهم سوى أنين الجرحى المهجورين، ثم عادت الفرقة المهاجمة لمتسلقي القدية، يحملون بعض أسلاب غنموها من مؤخرة العدو، تشمل طعام وذخيرة وفرود وبنادق حديثة، حيث قرر الأمير أن يغادروا المكان في جنح الظلام جنوبا، خشية عودة تعزيزات من عساكر الترك، ثم عرسوا حتى الفجر.

في اليوم التالي وصلوا الرياض ونال الأمير زيد اشادة أخيه بما قام به هو ورفاقه من جهاد فعال، وبشرهم أن الفرقة الصاعدة من أم قديد قد وقعت في الفخ أعلى التل، حيث وصلوا منهكين فوجدوا الأشداء في انتظارهم واوقعوا فيهم خسائر فادحة. وجد الجد علي جماعة من الرفاق يتحادثون، ودعوه لمجالستهم فقال أحدهم أن أمور الدرعية تبعث على القلق، حيث توترت الحال بين الأمير مشاري وابن معمر، وأيد ذلك أحد السبعان الذين رافقوهم في الدلم، وأوضح أن الوشاة ادخلوا في فكر الأمير أن المعمر لا يوقره، ويدعي عند خاصته أنه يجيد الدراية بفن القتال، وقد بلغ ذلك ابن سعود فأمره بالرجوع للدرعية مع زقم في انتظار عودته. وجرى تداول الأمر بين الحضور وما قد يتطور له الحال، فقال أحدهم ممن يقال إنه "حكيم" دعونا نعرف من صاحب الكلمة الرفيعة والنفوذ في جزيرة العرب الآن؟ وسارع بالإجابة إنه السلطان محمود ووكيله الباشا الكبير في مصر وولده إبراهيم، وقد تعود هجماتهم علينا مرة أخرى إذا لم نحسن تصريف أعمالنا. تسآل أحدهم عن المهيمن حالياً في نجد، فرد إن الأمر يبعث على الحيرة ففي الشهور الماضية تبدلت مواقع السلطة سريعا، وربما تتبدل أكثر فيما يلي، ثم أردف بالقول أننا لو تلفتنا حولنا سنجد خمسة رجال، أولهم مشاري المعمر وهو شاب في الثلاثينات صافي الفكر جيد التدبير، طيب المعاملة شجاع في المنازلة مع حاجة لكبح جماحه، وأبوه جاءته شيخوخة مبكرة ولا يعصي له أمر، لكنه ليس من عصب السلطة خلال السبعين سنة الماضية، رغم أن المؤسس (محمد بن سعود) جد أبيه (لأمه) فهو يخدم غرض الباشا لكونه ليس من آل سعود المبغوضين في إسطنبول، وهو يمكن أن يعمل وكيل لهم في حكم نجد. وثاني الرجال هو مشاري بن سعود، وهو أحد إخوة الإمام المشنوق الكثر، والذي نجهل كيف جاء من السجن العثماني، وهل سيظهر غيره من الاخوة مستقبلا؟ وفي كل حال فالفتى لم يكتسب معارف والده الذي مات وهو دون العشرين، كما لم يشارك بفعالية في الأعمال الحربية أو السياسية زمن الحصار، وكل ما لديه التشبه بمظهر والده بإطالة شواربه، والتنقل بصحبة لفيف من المماليك، الذين يُسدون له نصائح غير مجدية، كما ينقلون له وشايات أكثرها باطل، إلا أنه كريم العطاء لمن يحب ولهذا يعجب به كثير من البسطاء، وهو متعجل لحد التهور ولا يجيد حساب العواقب، ولأنه أخ الإمام السابق فهذا يجعل البعض يرونه الأحق بالولاية من غيره. والرجل الثالث هو الأمير عمر بن عبدالعزيز، وهو عم مشاري وشقيق أبيه الإمام سعود (أبوشوارب) ويتميز بخلق حسن وبغض للأذى ويحب العمل الصالح وذو مناقب رزينة، لكنه كان مبعداً عن السلطة زمن أبيه ثم في فترة حكم أخيه وحتى أثناء تولي ابن أخيه الإمامة، أما قدرته على محاربة الغزاة فهي جيدة لكنها دون الكافي. ورابعهم تركي بن عبدالله ابن عم والد الأمير مشاري، الذي يتميز بصفات حميدة لا تحصى، سواء من الناحية الخلقية أو عمله القتالي، وعلاقته مع رؤساء العشائر جيدة وكذلك مع العامة، إلا أنه منذ ولاية عمه (الإمام عبدالعزيز) وهو مبعد عن الأمر والنهي وسياسة شئون الحكم، كما يكرهه إبراهيم باشا لدور أخيه المزعوم في محاولة قتله (وليمة عرقة) الفاشلة، ويلاحظ عليه شغف قوي لتولي السلطة ولديه

طموحات عالية قد تتجاوز الممكن. ساد الصمت وكأن البعض يقول وماذا عن خامسهم؟ ثم أردف بالقول إنه الأمير حسن بن محمد، الذي جده مشاري (ثالث) أحد اخوة الإمام محمد بن سعود، وهو كما ترون رجل كامل الصفات الحميدة والخلق الرفيع والشجاعة والكرم، إلا أن الناس لا يرونه من آل سعود حيث يقصرونهم على ذرية محمد المؤسس، لذا فهو يبدو غير طامح ولا طامع في تولي السلطة والحكم عنوة، رغم ما يتميز به من خصال وسجايا حميدة، إلا إذا أجبرته الحال على ذلك. استمر الحضور في نقاش الأمر برهة من الزمن، ثم تساءل أحدهم عن صمت الجد علي، فرد عليه بأنه لا يحبذ الخوض في التنجيم أو البديهيات، ثم بين أن أحوال جميع البشر معي أو مع غيري خمسة أوضاع ، فهم أما أقرباء أو أصدقاء أو زملاء أو أعداء أو جهلاء أي يجهلون حالنا، وهذه بديهيات لا داع لمضغها، أما التنبؤ بالمستقبل فمستحيل "ما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت" ثم قال "ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء" ونعلم جميعا عدم جواز التكهن بالمستقبل الذي يعلمه الله وحده، وقام من عندهم يضرب أخماس بأسداس، وهو يقول سبحانك يا من "تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء" ولم تغمض عينه ليلا من كثرة الهواجس. في الصباح استخار ربه وعقد العزم على العودة لدياره، فما الفائدة من البقاء في تربص لنزاع بين أهل البلاد حول من سيتمكن من الفوز بمقعد الرئاسة، وهو يعلم أن الملك لله وحده يدبر السماوات والأرض كما يشاء. أرخص له الأمير تركي بن عبدالله الذهاب لشهرين، يمضيها مع أهله في وقت الحج حيث سينشغل الترك بتأمين السبل. ولما عاد للرياض وجد الأمير في كآبة وتشوش، حيث ظهرت على الملاء إشارات توتر العلاقة بين مشاري بن سعود ومشاري بن معمر، بينما يعد الترك جموع من قواتهم غرب طويق، والوضع في سدير مضطرب والإقتتال بين الأهالي مستمر، والطعام شحيح والاسعار غالية والمساكن والمزارع مدمرة، على خلاف الحال في الحريق الساكنة أمورها، وسلمت أرضها من لمسات الترك الفاسدة، ولم ينكبوا إلا ببعض الضرائب والغرامات الباهظة، لكن إذا سلمت النفوس "تهون الفلوس" كما يقولون.

في الشهر التالي استيقظوا فجراً على نباء مخيف، بأن المعمر قد سطا ليلا على منزل الأمير مشاري بن سعود، ومعه ثلة من المقاتلين جاءوا من حريملا، وقد هددوا من بالداخل بإحراق المنزل على من فيه إذا لم يخرجوا، وأمنوهم على دمائهم فخرج خدم الأمير وحرسه القليل، كما عاهدوه على ضمان سلامته إذا قبل الرحيل عن الدرعية، ثم عجلوا بنقله شمالا نحو سدوس في أعلى الوادي. وقبل الظهر جاء نباء آخر بأن فرقة من عساكر الترك تصعد درب الحيسية متوجهة على ما يبدو للدرعية، هرول الجد مسرعاً نحو قلعة دهام حيث الأمير تركي مع مستشاريه يتداولون الأمر، وقال أحدهم هذه هي الزلة الخامسة لآل معمر في المائة سنة الماضية منذ زمن خرفاش، فأي شيء يدعوهم لخلع وخطف ابن سعود، الذي بايعوه على السمع والطاعة في المنشط

والمكره؟ وكيف بقي آمنا في بيته وهو يرى منهم دلائل التربص به، وها قد انكشف تحالفهم مع الترك، وجعل أنفسهم وكلاء لباشا مصر ضد أبناء جلدتهم، وقال آخر إن خطوتهم القادمة ستكون نحوك وقرابتك، فعليك المبادرة بتدبير الأمر قبل فوات الأوان، وسرعة الفرار جنوبا عند الاصهار من آل شامر فرد بقول "نشوف" فساد الصمت. نظر الأمير للجد علي كأنه يناشده الرأي، فقال إن ما وقع على الأمير مشاري سببه أنه اجل عمل يومه للغد، وصبر على الخفي حتى يظهر والصغير حتى يكبر، ولا أظن القوم يتركوك فعليك بسرعة رفع الرجل من الرياض، والتوجه بعيدا عن الدرعية نحو مكان مجهول ليس لك فيه قرابة، حتى تستجمع فكرك وقوتك وتدبر الأمر. تحدث أحد السبعان فقال إن الحاير ليست بعيدة كثيراً مثل ديار العجمان، وفيها رجال يدافعون عنك ورفاقك وأرضنا حصينة بحفظ الله، ثم قال الجد ونحن أيضاً ما زلنا على دعوتنا السابقة لك. أكملوا الإعداد للرحيل وأرسل الأمير بعض أعوانه للدرعية، متخفين في هيئة باعة وعمال زراعة ورعاة، ليجلبوا له معلومات عما يحدث في العاصمة، وغادر الجميع الرياض بعد المغرب متجهين لأماكن متفرقة، لتفادي كشف موقعهم للمناوئين، وعند الصباح يحمد القوم السرى، فقد وصل الأمير تركي وحشد من صحبه من بينهم الجد علي إلى منزل كبير لأحد السهول متعبين لكنهم آمنون. وفي اليوم التالي جاءت أنباء من الدرعية أن ابن معمر أنجز أعمال الاستيلاء على السلطة، ثم بعد أيام علموا أن كتائب من عساكر الترك قد وصلوا للدرعية لمساندته، ويرافقهم بعض رجال قبائل غرب نجد الموالين للحملة العثمانية طيلة السنوات الخمس الماضية. كما تبين لاحقا أن خطة باشا مصر وولده إبراهيم، بأن يتولى حكم نجد الموالين للسلطان لم تعد مجدية، ويلزم أن يقوم عساكر الترك بالسيطرة على نجد، مع الاستعانة بوكلاء محليين يعرفون الطبائع الخاصة بالبلاد وأهلها، كما أن عليهم التقيد بقرار محمود خان السابق، بمنع كافة آل سعود من التواجد على الأراضي النجدية.

لاحظ بعض السبعان في الحاير أن وجود حشد من مرافقي الأمير، يتجولون في البلدة بسلاحهم وثيابهم المزركشة، سيلفتون انتباه السكان والجواسيس وستصل الأنباء للدرعية، لذا قرر الجد ورفاقه المغادرة إلى نعام على أن يبقى أحدهم ليزودهم بالأخبار، لكن الأمير رفض ذلك وحثهم على البقاء معه بضعة أيام ريثما يعد الدبرة. وعندما جاءوا لتوديعه أخبرهم أنه قد رأى خطورة البقاء في مكانه، لذا قرر التوجه لضرما حيث أصهاره (آل فقيه) ويكون بعيداً عن الدرعية، في مأمن من المباغتة، لكنه قريب من مصادر الأنباء، لكن أحد السهول حذره أن ضرمى تعج بخليط من البشر، وبعضهم عناقر من قرابة آل معمر وقد يشون به، كما يوجد فيها حشد من الأعراب وقبائل أخرى لهم مصالح متباينة، ولما التفت نحو سبعان الحريق قال أحدهم "هداية الله ثم رأيك وأنتم أبخص بالحال" سأل عما إذا سيصاحبونه؟ فسارع الجد بالقول إنهم رهن الإشارة، لذا قرر الأمير تركي المغادرة لضرماء في اليوم التالي. من هناك أرسل رجلين للدرعية لجلب الأنباء له، ثم اقترح أحد السبعان أن يرسل سبور نحو درب النزول من تلال

أديراب، وآخرون نحو عقبة الحيسية لاستشعار أي قوات قادمة لضرماء، حتى تجري منازلتهم خارج البلدة، لأن أكثرية السكان قد ينقلبون مع المعمر إذا وصلوا إليها، والنزول من القدية وعر لذا سيتجهون نحو العقبة الأقل صعوبة. وجه الأمير تركي ابن عمه الأمير عمر بن عبدالعزيز مع كتيبة مسلحة جنوبا، ووجه أخاه زيد بن عبدالله شمالا نحو أسفل الحيسية، حيث أيسر الطرق بين الدرعية والوشم، وبقي معه نحو خمسين مقاتل فقط بينهم الجد رفقة عدد من سبعان ضرما وحشد من سبعان الفُرع، وكان في موضع حرج لقلة عدد جنوده، مقارنة مع ما لدي محمد المعمر في الدرعية، والذين في صحبة ولده مشاري في الرياض، ناهيك بالعدد الغفير من جنود العثمانيين، المرابطون قريباً من الدرعية بقيادة رجل شبه معتوه يقال له عبوش أغا (عبود) وقد تدهور حال الترك تدريجيا، فبعد أن كان قائدهم باشا انخفض ليصبح برتبة "بيه" ثم نزلت رتبة القائد إلى أفندي حتى بلغت مستوى "أغا" ويقصد به من يدير مجموعة عمل، مثل تجهيز الذخيرة أو عمليات التحميل والنقل، لكن هيبة الترك تأصلت في قلوب النجديين، فترتعد فرائص بعضهم لمجرد مشاهدة أحد صغار عمال الترك. بعد أيام وصلت إشارة من أحد المرابطين أعلى ديراب، بأن قافلة فيها ما يقارب مائتي مسلح، خرجت من الرياض بقيادة مشاري المعمر، لتنزل من أعلى السفح نحو "قرقرى" جنوب ضرما، فسارع الأمير تركي بجمع كافة قواته، واستدعى فرقة أخيه زيد من الشمال، كما واكبه بعض الأعراب الطامحين للفوز ببعض الأسلاب على عادتهم الجاهلية القديمة، وقد تمكن من نصب فخ محكم لقافلة مشاري، التي تفوق ما لديه من عدد وعدة لكن النصر بيده سبحانه، وبعد دقائق من بدء الالتحام كانت قوات مشاري قد بدأت تتشتت في الفيافي، وسقط هو أسيراً لدى تركي بن عبدالله، الذي لم يفوت الفرصة فأمر أحد قرابته ليقود فرقة تتجه نحو الرياض بالأسرى، بينما توجه مسرعاً للصعود نحو أعالي وادي حنيفة بما تبقى من قواته، يرافقه جمع غفير من رجال المعمعة، الذين ينقلبون سريعاً لتأييد الفائز. تركوا سدوس ثم العيينة بعيداً على ميمنتهم، وانحدروا مع الوادي نحو الوصيل ثم الملقا، ودخلوا الدرعية من أعلاها متجهين لقصر حكم ابن معمر الذي كان يترقب حضور ولده، بنبآء القضاء على من تبقى من ذرية محمد بن سعود، لكنه تمكن من مباغتة حرسه والقى القبض عليه، ولم يمكث في الدرعية خشية تدخل عساكر الترك، بل توجه مباشرة للرياض حيث أودعه الحبس مع ولده. لم يتمكن عبوش من سرعة التصرف، لعدم وجود تفويض لديه لكيفية التعامل مع شجار العرب بين بعضهم، وشك أن أحدهم قد يكون لديه تعميد من جهة عليا، لذا اكتفى بسرعة ارسال إشارة للقصيم وبقي ينتظر التوجيه.

باشر الأمير عمر التحقيق مع آل معمر لمعرفة مكان احتجاز ابن أخيه (مشاري) وعلم أنه مسجون في العيينة، لذا أمرهم بكتابة خطاب لجماعتهم لإطلاق سراحه، واعادته مع المندوب إلى الرياض. لكن جاءهم الجواب بأن الدويش قد أخذه معه ليرسله لمصر، فما كان رد الأمير تركي إلا أن وجههم بسرعة استعادته، أو سيقتل الأسرى لديه إذا

أخذه الترك، وبعد أيام ورده نباء حزين بأن الأمير مشاري بن سعود، قد مرض وانطلقت بطنه بشدة ثم قضى نحبه، ولم يعد بوسعهم تدارك الأمر حيث يوجد وباء في عالية نجد، وعرضوا دفع دية مضاعفة مع فدية لإطلاق سراح أقاربهم، لكن الأمير استشاط غيظاً من ذلك وأرسل رجاله للإجهاز عليهم. أخبر أحد الرفاق جدي وصحبه، أنه شاهد مشاري المعمر وأبوه (شيخ كبير) وقد حزت رقابهم وهم مقرنين في الأصفاد. شعر الجميع بالحسرة لبلوغ النزاع بين أهل القبلة ذلك الحد المفجع، وعلى تفاهة مقعد السلطة العليا الذي يؤدي لهذا الحال البائس، وتوجه بعضهم لمجلس الأمراء، حيث تداولوا الأمر معهم لكن عمر وولد عمه تركي اصروا على صحة عملهم، وسردوا قوله تعالى " ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطان فلا يسرف في القتل" وقال عمر أنا عم مشاري ووليه وهذا قصاص شرعي، أما تركي فقال إن أحد لم يتعرض لأقارب المعمر بشر، "فلا تزر وازرة وزر أخرى" لكن الجد بقي في كدر وحزن خفي عدة أيام، ثم راجع الأمير تركي مستأذناً العودة لأهله لوجود ما يستلزم ذلك، فودعه وهو منشغل بأمور الحكم، وقد تكاثر حوله مناصرو السلطة، وبعضهم يحرضه للتوجه لاسترداد العاصمة (الدرعية) لكنه تخوف من ذلك حيث عساكر الترك في تخومها.

في الحريق باشر الجد علي رعاية أملاكه من زراعة وأنعام، كما وردته بضائع اشتراها من مندوب في مسقط، باع شيء منها في بلدته والبقية أرسلها للقصيم، حيث أحد سبعان عنيزة يتولى تصريفها وإرسال طعام وثياب وأدوات بقيمتها، وتحصل له عائد غير كبير بسبب أوضاع القتال في وسط البلاد. كذلك تابع مع العمال والرعاة، أحوال مواشيه التي تتجول في مراعيهم المزدهرة، الممتدة من الحائر حتى الدلم وبرك وليلى، والثقيل منها لا يتجاوز نعام والرين. ترد إليهم أنباء عن أحوال الأمير تركي في الرياض، وقد ناصره الكثير في سدير والمحمل واليمامة، بينما ناوئه البعض منهم خوفاً من بطش عساكر العثمانية، على رأسهم العايذي وآل زقم والمبارك والسويد والماضي والعسكر، وآخرون ينصحونه بالكف عن مصادمة الترك حتى لا يقتلوه. أما القيادة العليا في إسطنبول والقاهرة فقد انشغلت بأمور داخلية هناك، حيث السلطان محمود في شغل مع بلاد البلقان والروس، أما الباشا الكبير في مصر فقد وجه جل اهتمامه لمعارضيه، كما يسعى لتطوير البلاد بنشر مدارس الصنائع وأخرى للألسن، وغيرها مثل هندسة المباني والقناطر والسفن، ويعمل لتحسين أساليب الزراعة ومكافحة الآفات وتطوير الطب وتحسين الطرق، أما ولده إبراهيم فقد امتدت طموحاته لغزو مناطق مجاورة مثل النوبة والشام وبلاد السودان، طامعاً في تحقيق مزيد من الانتصارات بعد أن نال استحسان خليفة المسلمين لقضائه على حركة الإصلاح في الدرعية. ورغم كل ذلك توتر الجميع لما علموا بعودة أحد حفدة محمد بن سعود للحكم، فقرر محمد علي الألباني إرسال جيش بقيادة أحد قرابته، يقال له "حسين بيه" المتعطش لسفك الدماء والمحب لسلب الأموال والراغب في تدمير المباني والمزارع، وأوصاه بسرعة القضاء على حركة الأمير تركي بن عبدالله، والحاق أكبر ضرر ممكن في الديار النجدية حتى

لا تقوم لها قائمة. وبينما كان تركي يعمل لإصلاح الدرعية والرياض وبقية مدن اليمامة، ومكافحة الفتن التي قامت في سدير والمحمل والوشم والخرج، جاءته أنباء وصول حسين بيه (الدالي) للقصيم على رأس كتائب ينوف عددها على ألف وخمسمائة جندي، مجهزين بأحدث البنادق والمدافع والمتفجرات، وقد حاول سبعان القصيم (بخاصة عنيزة) عرقلة مسيرته إلا أن البعض كانوا حديثو عهد بما جرى قبل ثلاث سنوات، وما جرته عليهم مخالفة سلطان المسلمين(!) من مآسي وأهوال لا يريدون تكرارها. ووصل حسين بيه إلى الوشم وأقام له قاعدة حصينة في ثرمداء، وأرسل رتبة من لدنه إلى الأغا عبوش في جوار وادي حنيفة، لمعرفة المزيد عن الحال هناك قبل أن يصعد طويق. في الحريق اقترح بعض آل خثلان التوجه للرياض، لمساندة الأمير تركي في الدفاع عنها، لكن آخرون رأوا خلاف ذلك حيث لم يصلهم النفير للجهاد، كما أنهم سأموا الخروج على خليفة المسلمين، الذي انعقدت له البيعة من أهل الحل والعقد في ديار الإسلام، كما تراود بعضهم هواجس حول رغبة كل قرية الانفراد بالسلطة، مما يشعل الضغائن والاقتتال بين الأهالي كما حدث بوضوح خلال الفترة الماضية. أما الجد فقد كان ما يزال موجوعاً من مقتل آل معمر في السجن، وينزه نفسه وسلاحه عن الخوض في دماء المسلمين، حيث كثير من الأهالي اصابتهم المرارة ولا يرون مفر من قبول سلطة الخليفة، بدل من النزاع الدائم بين البلدات على النفوذ، لذا فهو لن يغادر موطنه حتى يتضح الأمر بجلاء. قرر المتحمسون للجهاد أن يذهبوا للحاير، حيث توجد لهم مصالح وأملاك وعلاقات، ويكونوا على مقربة من الرياض إذا استدعى الأمر مقاتلة الروم.

في رجب وردت للحريق أنباء وصول حسين بيه وجنوده إلى الرياض، فأنفضت جموع المؤيدين للأمير تركي من حوله، ولم يبق معه سوى قرابته وخدمه ونفر قليل من المجاهدين، فحاصرهم الترك ودكوا حصنهم بالمدافع وبدأت بعض الحوائط تتهاوى، وانتهى الأمر بالقبض على كافة الموجودين من ذرية ابن سعود وآل مقرن، بينما تمكن الأمير تركي بن عبدالله من الفرار تحت جنح الظلام إلى جهة مجهولة، قيل أنها القطيف عند رحمة، أو أنه في غرب الأحساء عند آل عفيصان، أو ابتعد جنوباً نحو مسقط عند قوم من البوسعيد. غطت "سحابة من الكآبة" على خاطر الجد، واضطربت أفكاره فهو معارض كلياً لفكرة الرضوخ لسلطة من ادعى أنه خليفة المسلمين، وهو يعمل بالبدع لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر، فلا سمع له ولا طاعة ولا مناصرة، لكن ماذا يفعل وقد تهاوت جميع شخوص من يقاوم نفوذ ذلك السلطان الطاغية، وهو يقبل في قرارة نفسه من يحكم بالكتاب والسنة ويقتدي بالسلف الصالح، سواء كان من ذرية المريدي أو التميمي أو حبشي كأن رأسه زبيبة، وبقي كذلك زمن يسأل الله فيه الرشاد لنفسه وأحبته وكافة أهل دياره. ذات عشية كان مع القرابة والصحب في المقهاة، يتداولون بعض شئونهم الخاصة والعامة، حينما قلب أحدهم الحديث فقال "أين الخمسة الذين وعدتمونا بمجيئهم للحكم قبل شهور" فهاهم

مشاري بن سعود ومشاري بن معمر قتلى، وعمر بن عبدالعزيز وحسن بن سعود أسرى، والأمير تركي بن عبدالله لاذ بالفرار خشية الإمساك به. ورد عليه آخر لم نعد نريد أحد منهم، بل يسعنا ما وسع كافة ديار الإسلام من الرضا بخليفة المسلمين السلطان محمود، فمن شذ عن الجماعة شذ في النار، فاعترض الجد على ذلك لأنه لا يحكم بشرع الله، أيده أحد البسطاء بأن الصالحين لا يقبلون ولاية "الكيفران" عليهم يقصد الكفار، فتبسم الجد لكنه لم يكد يتحدث إلا وعاجلهم أحد الجالسين، الذي أشار أن أفضل حال أن تتولى كل بلدة حكم نفسها، وتساءل عما تحصلوا عليه أثناء حكم الدرعية لنجد، سوى القتال المستمر والضرائب على أموالهم، أيده آخر أن من تولوا السلطة في الدرعية حصلوا على كل الفوائد، من قصور مشيدة وخدم وجواري وأمتعة ورياش، وزعوا بعضها على أقاربهم والمحسوبين عليهم وفتاوى المأجورين، ونحن في شظف وعناء لا نريد العودة إليه. كان البحث يسير نحو أفكار طائشة، تنبع من مشاعر الخيبة ولا علاقة لها بما هو جاري عند الناس، ولا تمت للواقع بصلة بل تشطح نحو الخيال، وأسواء الحراقى هم أولئك الذين لا يفهمون معنى العلم والمعرفة، ونشأوا على عدم احترام خاصية الإنصات لمن هم أعلم منهم، ثم فهم ما سمعوه وحفظ أفضل ما فهموه، ثم العمل بما حوته قلوبهم وعقولهم من صالح الأفكار، وبعضهم يزيد على ذلك باستصغاره للعلماء، ناسياً قوله سبحانه "هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون" إن التنشئة المضطربة المرتكزة على قلة احترام العلم، جعلتهم يتخبطون في غياهب الجهالة، وليس أخو علم كمن هو جاهل، بل يتبجح بعضهم قائلا "ما هذه القراطيس التي يزقلبونها!" ويتطاول على غيره بالتفاخر بأجداده أو بماله، وقد رد الجد على أحد أولئك الجهلاء بأنعِم بالأجداد ولكن ماذا أنجز الأحفاد؟ وآخر رد عليه إن المال المكتسب بغير علم (من حرب أو خبطة عشواء) هو وبال على صاحبه في دنياه وآخرته. لكنه كان يحاول دوماً تجنب الاحتكاك مع التافهين، وبخاصة ذوو الجهل المركب، مثل الذي لا يعرف ولا يعرف أنه لا يعرف بل يظن أنه أعرف العارفين، فهؤلاء يرى البعد عنهم غنيمة، ولا يسلم المرء من مصادفتهم أو معاملتهم على مضض وفي حرج، فهم أشبه بنافخ الكير الذي لا تنجو من أذاه البتة.

أثناء جلوسه مع البعض إذ أقبل نحوهم رجل على ناقة صغيرة، ليس من سكان الحريق وتبدو عليه ملامح وعثاء سفر غير بعيد، أناخ ووضع بندقيته جوار دابته وأقبل مسلماً، فصاح عليه أحدهم "فك اللطمة" وتبين من ملامحه وثيابه أن كأنه دوسري، وتساءل إذا كان معهم من يدله على مكان علي بن خثلان، واستفسروا منه عن لزومه فقال أنه مرسل إليه من أحد رفاقه في الأفلاج لغرض خاص، قام الجد معه ودعاه للسير سوياً، فقال أحد الأقارب له أن يضع الخنجر والفرد عند البكرة، قص عليه أنه قادم من محمدي الدلم، والأمير تركي يسأل عما إذا كان مكانه الذي دعاه له ما يزال قائماً، حيث لم يشعر بالأمان في الخرج من عيون العايذية، رحب بالرجل ودعاه للعودة للمجلس ريثما يتدبر الأمر. أشار للجد لأحد عماله ليذبح العناق ويعد عشاء سريع للرجل، ثم أرسل

آخر ليستدعي له ابنه عبدالله. أصر الرجل على الرحيل ليلا فأرسل معه ابنه الشاب، ووصف له مكان غار في جبال علية ليأتي له بالرجال من الدلم، وأوصاه بالحذر الشديد بعد أن يتجاوزوا ماوان، للتأكد من عدم وجود من يتتبع أثرهم. في اليوم التالي أرسل ثلاث فرق من الرجال، أولاهما عمال غير مسلحين وأوصاهم بالذهاب نحو إحدى المغارات في الجبال شمال شرق الحريق، والثانية مسلحة بعتاد خفيف اتجهت نحو جنوب الدلم (زميقة) وفيها أحد أخوال ولده، وأوصاهم بتحسس مكانه ثم تتبعه عن بعد لضمان سلامته ورفاقه، الذين لم يعلموا كنههم ولا غايتهم، أما الثالثة فتوجهت شمال غرب الدلم (قرب المنيصف) ومزودين بسلاح ثقيل لا يمكن اخفائه، على أن يبقوا في الخفاء متابعين تحركات ابنه عبدالله، وعلى أهبة الاستعداد لدفع غائلة أي عدو صائل، قد يهاجم قرابتهم أو يتجسس عليهم، وقد أوصى الجميع بالحذر الشديد من أعوان العايذي، الذي أعاده الأتراك لمنصب حاكمية جنوب اليمامة كلها، وهو دائم التشكك في افراد قبيلة سبيع من الحاير حتى الأفلاج، وبخاصة أهل الفُرع ومنهم آل خثلان. وفي اليوم الثالث توجه الجد شرقاً وأناخ مع صحبه قرب أحد التلال، وأرسل العيون لتحسس القادمين من جهة الصحنة، وجاءه أحدهم ببشارة وصول الركب على مسيرة ساعة، فسارع بامتطاء فرسه وليس معه سوى أحد القرابة، ولما شاهد ركاب جماعته على بعد ترجل وسار على مقربة منهم، حيث تبادل التحية بحرارة مع الأمير وصحبه، ثم وصل بقية الجمع وجلسوا لتناول الطعام وتبادل الحديث. بعد ثلث الليل كان أكثر المسافرين نيام متعبين من وعثاء الرحلة، أنهى الجد تهجده وأيقظ أحد عماله وأمره أن يذهب لمحادثة حارس الأمير الجالس عند فراشه، ليخبره بوجوب الرحيل الآن وتحت جنح الظلام حتى لا يراهم أحد، وأن لا يصاحبهم سوى أربعة من رجاله الثقات، ويتركوا بقية المرافقين مع "العازات" ليتم تدبيرها عند الصباح، ثم انطلقوا في سكون نحو قمة "عليه" تجاه شمال غرب، كان الطريق يصعد بوعورة وخطر التدحرج في العتمة، وبعد ساعات دخل الوهن والنعاس بعض الرجال والدواب، لذا قرر الجد أن يعرسوا حتى الصبح، ثم استأنفوا المسير فلما رأى الأمير قمم طويق الشاهقة، ذكر الله وسبح بحمده وتعجب من ذلك المكان، الذي لم يحسب أن في عارض نجد مثله، واستفسر عن إمكانية المعيشة بين تلك الجلاميد الجرداء، فقال الجد إن أكثر ما يهمنا سلامتكم "أطال الله عمركم وحرسكم" فإن العثمانية وضعوا جائزة كبيرة عليكم، والعايضية يبحثون عنكم ليل نهار ليوطدوا حكمهم في الخرج، وسترون أن المكان ليس مريح ولكنه ليس شظفاً. وصلوا إلى غار عريض لكنه ليس عميق، لا تسكنه الهوام وقد وضع العمال ستارة طولها نحو عشرين خطوة باتجاه المغرب، وأقصى عرضها من جهة الشمال خمس عشرة خطوة، ثم تغدو مدببة غرباً حيث الغار على هيئة هلال، وفرش العمال أرضيته برمل ناعم بعد إزالة الحصى والجراويل، وقسم ذلك الحيز إلى مجلس عريض مفروش بالزرابي العراقية، ويليه جزء داخلي مستور وصغير يصلح كمختصر، وأرضيته بثت عليها أرائك ورفارف وزل عجمي، أما الجزء المدبب في أقصاه فجعل مكان للبنادق والذخيرة، ويمكن أن يرقد فيه ثلاثة أنفار في ضيق. أما

النصف الأيسر فقد قسم إلى جزئين فقط، حيث الغار محدب من تلك الناحية الأقصر، ويليه على بعد خمس وعشرين خطوة بيت شعر صغير، مخصص لسكن ونوم الحرس وعمال القهوة والطعام، وأوضح الجد أن المكان لا يرى إلا من جهة الشمال الغربي، فإن الخطر قد لا يأتي منه وإنما أكثره من الجنوب الغربي حيث الحريق أو من الجنوب حيث الحوطة، أو من الشرق تجاه الخرج فهو أشد الخطر، ومن ناحية الشمال يقع حائر سبيع ولنا قرابة هناك لن تمر العساكر من عندهم بسلام، أما الشمال الغربي فليس قريب منه قرى، بل منابع نساح وبعدها قرقرى الوشم ذات الدرب المفتوح للناظرين. لذا فأرى أن المكان حصين بحفظ الله، ولزيادة الحرص فقد أوكلنا لثلاث فرق أن ترصد الجهات التي قد يأتي منها عدو، وسيهبون لإشعاركم فور الشك في ذلك ومعهم ركائب نجيبة تأخذكم نحو الفيافي الغربية جهة الرين، حيث رتبنا هناك أيضاً مكمن مؤقت. تساءل الأمير عن كيفية اخفاء وجودهم رغم هذا الحشد من الحرس والخدم؟ أجابه الجد بأنهم أحضروا ثياب للخدم مثل ما يرتديه عامة الحراقى، ولكم ورفاقكم ثياب جيدة لا تلفت الأنظار، أما الحرس فهم بعيدون لا يكشفون الغار وجواره، ومعهم درابيل يكشفون بها القادمين من مناطق المناوئين. كما عمدنا إلى كذبة حرب خادعة فقد أشعنا أن أحد أبناء العم الأفاضل قد أعرس ويريد العزلة لبعض الوقت، وهو سيأتي نحوكم مرة كل شهر لتفقد حالكم ونقل ما لديكم من رسائل لأهلكم وأعوانكم، وأحكمنا ذلك أيضا بأخذ منزلين متظاهرين في الحلوة، فسيخرج مندوبنا حاملاً رسائلكم من الحريق، ويدخل البيت المواجه شرقا ويمرر الرسالة من كوة لرجل في المنزل الخلفي، الذي سينتظر حتى انقشاع الرقابة ثم يخرج من الجهة الغربية، متجهاً في الخفاء للشيخ فراج في الحائر، الذي بدوره سيعمل على ايصالها حسب ما وجهتم به، ونقترح أن تكون رسالتكم له غير مسماة ويشار للمرسلة إليه برمز مثل "سلموا فلان قيمة كذا" وهو سيفهم القصد، كما سنبدل الرجال والأماكن والركائب كلما اقتضى الأمر زيادة في الحرص رعاكم الله. ثم أردف أن هناك أمر آخر وهو اننا أمرنا فرقتين من الرعاة، أن تجول إحداهما جنوبا والأخرى شرقا، ومعهم قليل من البهم (معز وضأن) والنياق على أن يذهب اليهم بعض خدمكم لأخذ الحليب والطعام منهم، كما أن التلال القريبة من الغار تختبئ فيها وعول يمكن قنصها. قال أحد مرافقي الأمير إن أمركم غريب، فقد رأيت حريقي في زميقة قبل أيام يعترض على حكم ذرية الإمام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب، يقول أنهما كانا يرسلان ليلا عصبة من لصوصهم من الدرعية، نحو معكال ومقرن وصياح والحبونية، ويسطون على الرعاة ويأخذون ما لديهم غصباً وربما قتلوا البعض، ثم يفرون في الظلام قبل أن يدركهم جنود ابن دواس، وكانوا يكفرون البسطاء لسلب ما معهم بحجة أنهم لا يعرفون التوحيد والفرق بين الله والإله والرب، ولا يميزون بين أفعال الخالق والمخلوقين! ولا يفهمون صفة استواء الرحمن على العرش وما إذا كان قاعداً أو مضطجعاً؟ وهي أمور منهي عن الخوض فيها، لكنهم يستخدمونها لتكفير العامة بقصد سرقة ما معهم، ومهما أجابهم المرء وإن كان أعلم منهم، فهم يكذبونه بأنه مثل إيمان "أبوجهل" الكافر أو أنه مرتد يقام عليه الحد.

ولما بينت له أن ذلك كان من افتراء البعض على الإمام والشيخ رد علي بحدة ثم قال لي حريقي آخر أن هذه الأمور مؤكدة، حيث قام ابن سعود بجلب شاعر من اليمن يقال له الصنعاني، يحسن نظم الكتابة شعراً ونثراً وأملى عليه ما قاموا به من أعمال مخزية، ووضعها في مخطوطة عملت منها عدة نسخ، كما استجلب للدرعية رجل أحسائي يقال له غنام يدبج النثر والشعر، وبعد وفاة الإمام أملى عليه الشيخ محمد مثل ذلك، وبعد أن دخل الإمام سعود مكة "غازي" تنصل من صحة تلك الكتابات، ولم يعلم أن منسوخات منها قد وصلت الطائف والزبير، وأرسل الأشراف وآل وطبان بعضها إلى بغداد ودمشق ومصر، فهي موثقة بكلام من أملاها وخط من كتبها ولا يسع أحد التملص منها. وحريقي ثالث قال إنهم يبغضون والد الأمير تركي، لأنه جاء بلدتهم قبل أربعين سنة وقتل بعض أهلها وسلب المال، كما أن الإمام سعود (ابن عم الأمير) قد هاجم قافلة تجارتهم القادمة من البحرين وقتل أهلهم وسرق أموالهم، لذا فهم يرون أن الترك أقل أذى عليهم. تعجب الجد من تلك المقالات وقبل ان يرد على الرجل، بادر الأمير بسؤاله عن كنه من قالوا ذلك فقال إنه لا يعرف أسمائهم، فرد عليه بأن كل نفس بما كسبت رهينة، وكان ذاك زمن كريه وأحداثه جسام وقد أحدثت اضطراب لدى الكثير، ثم قال الجد إن والدكم جاء للحريق على حياة عمكم الإمام عبدالعزيز، لحدوث ما يخل بالأمن وقد حمد آل خثلان الله أن ولده سعود لم يباشر ذلك، بل تولاه أباكم رحمه الله وقد محص الأمر، ثم قضى بإعدام بعض أشرار الفتن ولم يكن أحد منهم من آل خثلان، ومازالت أسرتنا تعرف فضله، ولدي أمر آخر وهو أن كل بلدة لها نصيب من البلاهة، لكن الحريق نصيبها فوق المعتاد، وبأهلها تشقى البلاد وتسعد! قرر الأمير قفل ذلك الجدال فسأل الجد عن عشائر سبيع، فبين له أنها ليست من القبائل ذات العدد الغفير، فهز رأسه قائلا إن البركة في صلاح العمل وليس كثرة العدد، ثم استأنف الجد حديثه بالقول أن في سبيع عشائر كثيرة، ولكن غالبها ترجع إلى ثلاث أرومات، أولها يقال لهم بني عمر يتفرعون إلى الخضران والصعبة، ومنهم عترة الجبور التي ينحدر منها آل خثلان، والعزة وينتشرون في حائر سبيع والفُرع، والعرينات في رماح والبكيرية ونبطة الأفلاج، أما الثانية فهم آل عامر وينحدر منهم الكثير مثل القدعان والضعفة وقواودة نعام (آل ذواد) وآل حميد، أما الثالثة فهم الزكور وينحدر منهم جمهور غفير من سبعان رنية مثل الفراعنة وسبعان ضرما وعنيزة مثل بني ثور، وغيرهم كثير مثل مكاملة "عُمير" في العروق، وبعض السبعان في القطيف والبحرين. بعدها استأذن الجد للمغادرة داعياً الله للأمير بالسلامة من كيد الأشرار، وحاثاً على المزيد من التكتم وإبقاء الاتصال مع الغير في أقل حال ممكن، كما تمنى له القبول والبركة في شهر الصوم الفضيل.

أمضى الجد الشهور التالية في متابعة توفير ما يمكن من سبل الأمن والراحة للأمير في جبال علية، مع متابعة حثيثة لأحداث وسط جزيرة العرب التي كانت في مجملها بائسة ومكدرة، فلم يبلغهم نباء سعيد واحد بل نكبات متوالية، فقد تبين يأس باشا مصر

من تمكن أحد من آل مقرن المتساهلين أن يحكم نجد تحت توجيهه، وأما غيرهم من العشائر الأخرى فكانوا أضعف من تولي تلك المهمة الصعبة، إضافة إلى نشوب نزاعات بين تلك العشائر وغيرها، أو نزاعات داخل كل عشيرة نتيجة للثارات والاطماع والفتن، لذا تقرر أن تكون إدارة البلاد بعناصر أجنبية، مع استخدام أقصى أساليب البطش والطغيان ضد الأهالي ومساكنهم وأموالهم ومزارعهم وبهائمهم. وجاء ذلك في وصول المزيد من الغرباء لحكم المناطق المتفرقة، مثل الدردنلي وبهلول والأمازيغي، الذين ساعدوا حسين بيه في تدمير ما تبقي من مباني الدرعية، والبلدات التي تناوئ الترك، ومصادرة سلالات الخيل الأصيلة والإبل النجيبة والضأن النجدية، مع فرض المزيد من الغرامات والضرائب. لكن النكبة الكبرى كانت في أسر المئات ممن تبقى من أعيان الدرعية وسدير والخرج، وسحبهم مكبلين إلى الوشم (ثرمداء) حيث أسكنوهم في حظائر المواشي، ثم قتلوهم بدم بارد وبلا جرم فعلوه، إنما بقصد بث الرعب والخنوع في قلوب أهل البلاد، كي يكفوا عن مقاومة الغرباء أو يرحلوا خارج الوطن. واضافة لذلك أخذوا يذكون الفتن بين سكان البلاد كي يقتل ويسرق بعضهم البعض، فجاء للحريق بعض أسر من سبعان القصيم، يناشدون أفراد من عشيرتهم للقتال معهم ضد أقاربهم، في نزاعات هامشية حول مقاعد "السلطة والدراهم" وتنافس على الولاء للترك البغاة. كما تفاقمت النزاعات الأهلية داخل بلدات سدير والمحمل، أو بين بعضها على أمور تافهة، لا يستفيد منها سوى الغزاة الدخلاء، وكان الجد علي بن حمد ينزه نفسه ويحرض قرابته، للبعد عن الخوض في تلك الفتن والأحداث البشعة، التي استمرت خلال العشرين شهر التالية. ولما لاحظ قادة عساكر الترك، أن الخور قد استقر في نفوس أهل نجد، ولم يبالوا بفسوق الغرباء في بلادهم، لذا قرر طاغوتهم حسين بيه ومعاونه عبوش أغا، الاستئذان من باشا مصر للعودة فشهر رمضان المبارك، وتركوا في نجد كتائب متفرقة يرأسها رجل مغربي، أقام مركزه في الرياض ويعاونه ضبط صغار، ينتشرون في بعض المدن الرئيسة، وعلى امتداد دربهم من العارض إلى الحجاز، عاثوا فساداً في البلدات يقتلون ويهدمون ويسرقون ويتفاحشون، فعليهم من الله ما يستحقون. وفي تلك الفترة بلغ الجد علي نباء انجاب زوجة الأمير تركي غلام، وكانت قد انجبت له بنت قبل ذلك، حينما كان يتولى شئون الرياض زمن حكم المعمر للدرعية، وكانت تزور الأمير في علية خفية مع بعض أقاربها من العجمان، إلا أنها لا تحتمل الإقامة طويلا في شظف الغار. وقرر الجد أن يتوجه للجبال لتهنئة الأمير وتفقد أحواله، في إحدى زياراته القليلة هناك لتجنب لفت الأنظار، واستقبله الأمير بحرارة وأنبأه أن أخوال المولود قرروا تسميته محمد، لكنه سيلقبه "جلوي" لأن أبوه كان في ظرف جلاء حين ولادته، واستهجن الجد ذلك اللقب الذي يشير إلى حالة بؤس ومعاناة مؤقتة بعون الله، وقال للأمير إن الجلاء يعني الخروج والنبذ عن الأرض، وربما يوجد لقب أقل قسوة منه، لكن الأمير أصر على ذلك وأفاده أن المسألة منتهية، وأردف قائلا بأن ذلك أخف من لقب "جهموم" الذي اقترحه البعض عليه، فدعا الجد الله أن يجعله عبداً صالحاً وقرة عين لوالديه، ولم يعد

لبحث الأمر معه. ثم أنشد الأمير لمجالسيه شيء من قصائد نظمها في غربته، يسلي بها وحشته في ذلك المكان المقفر النائي عن الحضارة، وحفظ الجد بعضها وهي باللهجة النبطية (عامية الفلاحين) ومنها قوله: ـــ

جلست في غار على الطرق كشاف ********* على طريقٍ نايفً في عليه

وطويق غرب وكاشف كل الأطراف****** وخذيت به وقت حيث له قابلية

خويي الأجرب على كل حواف ********** في يد شجاع ما يهاب المنية

قطاع بتاع لماع ولا نيب خواف **********أدعوه سبحانه يصلح لي الذرية

وهومن القصيد غير المضبوط الوزن لكنه جيد المعنى، فقد كان الأمير صاحب مواهب عديدة، فإضافة لذكائه الحاد وحسن تدبيره، فهو يجيد علم الفلك والطب البدوي وسلالات الخيل الأصيلة رحمه الله. وقد حدث الصحب عن شوقه للقاء الأحبة المنفيين خارج البلاد، وعلى رأسهم ولده فيصل وابن عمه عمر وابن أخته مشاري.

ومضت الشهور والجد منشغل في متابعة شئون أسرته وأملاكه، والاهتمام بسلامة ورفاه الأمير تركي في مخبأه، ينزه يده ولسانه وسلاحه عن الخوض في تلك الحوادث الكريهة في نجد، حيث أهل البلاد يتصارعون مع بعضهم على المال والمناصب، بينما الترك يعيثون الفساد في الديار يقتلون ويهدمون ويسرقون ويهتكون الكرامة. واستثناء من ذلك عندما وردته أنباء عن حادث واحد، جرى بتحريض من أحد المزاريع ضد سبعان الحاير، حيث جرت هجمات من الطرفين فهب الجد وصحبه لمساندة قرابتهم. فتوجهت كوكبة من فرسان وهجانة الحريق ونعام والدلم، وكان بصحبتهم الجد علي الذي شعر بالغبن الشديد مما اتخذ ضد السبعان، فقد نكل بهم الترك وأعوانهم بلا سبب واضح، وإنما الأمر يتعلق بأمرين أولهما حب البطش والتنكيل بكل من لا يخنع ويخضع لرغباتهم، ويصمت إزاء غطرستهم وتعديهم على أهل البلاد المستضعفين، والثاني هو اشتباه خيالي أن السبعان يؤوون في بلدتهم الأمير تركي بن عبد الله، وهو آخر من تبقى في نجد من ذرية مؤسس الإمارة السعودية في الدرعية. ولا يوجد أي دليل ملموس أن القوم قد رفعوا السلاح ضد العثمانلية، يبرر إيقاع العقوبة بهم، وبلغ الجد أن السبب يكمن في نزاع بين اثنين من أهل منفوحة، التي مثل كثير من البلدات انقسم أهلها بين مؤيد للترك (الغالبية) وجيرانهم من المخلصين لبني الوطن ورجاله الصادقين، لذا قام الخائن بالشكاية للمتصرف في الرياض "بهلول" ودلس الكذبة على جاره أنه على اتصال مع سبعان الحائر، الذين يختبئ لديهم الأمير تركي، فجند بعض من تميم وقحاطين اليمامة (أكثرهم شرفاء وقلة خائنة) وأرسل معهم طائفة لا يزيد عددها عن الخمسين من العسكر، مع حشد من العربان ينوف عددهم على المائة، فلما وصلوا الحائر قتلوا وسرقوا وأخذوا رهائن من أبناء كبار أهل البلدة، وأمهلوهم عشرة أيام لتسليم الأمير أو يقتلوهم، ثم ذهبوا إلى نعجان مع الأسرى حيث مأوى حصين وعاد

قادتهم للرياض. وصل الجد ورفاقه إلى شعيب جنوب غرب الحائر، وأناخوا فيه حتى لا يلفتوا انتباه العدو، وكان أول ما بادروا إليه هو ارسال مندوبين لقائد الترك "كاشف" لتمديد المهلة التي اوشكت على الانتهاء، ريثما يصل المزيد من المدد وتوضع خطة محكمة للقتال. وافق العدو على زيادة المهلة خمسة أيام فقط، ليتمكن السبعان من أسر الأمير تركي ليفتدوا به أسراهم، مع وعد بعدم قتله بل يكتفي بترحيله عند الباشا في القاهرة، وأمضى الجمع تلك الأيام في إعداد خطة مهاجمة الترك وأعوانهم وفك الأسرى، فأخبرهم أحد العارفين أن العدو لن يحضر بقضه وقضيضه لموقع المبادلة، بل سينظر من بعيد بالدرابيل ما اذا كان الأمير معهم، ثم يطلب منهم البقاء بعيداً ويحضر نحوهم عشرة رجال فقط معهم الأمير، وسيرسلون هم نحو خمسين من المسلحين العرب والترك بصحبة المربوطين، ثم تتم عملية تبادل التسليم بينما قوات الطرفين على مبعدة، لمنع حدوث أي غدر أو سوء تصرف. عندها بدأوا في وضع منهج العملية، فتقرر أن يكون الزمان عند بزوغ شعاع الشمس، وأما المكان فهو شمال غرب الحاير حيث سيأتي العدو من منفوحة، وقد يصلهم مدد من نعجان جهة الجنوب الشرقي عبر الوادي، أما مدد الموحدين فيأتي من المنيصف (جنوب غرب) لكن لم يصل الكثير حيث انشغل الناس بالحج، وقدروا عدد العدو بما يزيد عن المائة وخمسين وربما يقارب المئتين، أما السبعان فبالكاد يتجاوزوا المائة إلا إذا وصلهم مدد. دبروا رجل في حجم الأمير وألبسوه مثل زيه ومعه مرافقيه، وانقسم البقية إلى ثلاث فرق الأولى في الخلف ظاهرة، والثانية في مكمن خفي تنبطح في أحد الشعاب شمال غرب موقع التبادل منذ الليل، والثالثة فيها الجد تختبئ وراء تل صغير شمال شرق المكان، حيث يرون بوضوح عساكر العدو عندما تسطع عليهم الشمس، واتفق أن تبدأ الرماية عليهم فور أن يترجل أعوان الترك عن ركائبهم، ليستلموا شبيه الأمير ويسلموا الأسرى. إلا أن شدة التحفز أدت للارتباك فبادر بعض السبعان بالتعجل بالرماية، فثار البارود والرصاص قبل الأوان، وشاهد الجد خمسة من فرسان سبيع يظهرون من شِعبهم متجهين نحو الترك بسرعة خارقة، فسارع إلى ذلوله ليلحق بهم وهو يطلق النار من بندقيته على العدو. كان القادة واضحين من على بعد بسبب زيهم المزركش الذي يسطع في ضوء الشمس، مما جعل من السهل على الصحب المندفعين في المقدمة أن يجندلوهم من على الركائب، ولم يتمكن الجد من مشاهدة ما يجري في موقع التسليم فقد كان منشغلا بالاندفاع نحو البغاة، وتصويب رمايته نحو مقتلهم إلا أنه سمع صوت طلقات من تلك الناحية، وفي أثناء ذلك شاهد مجموعة من المقاتلين يزيد عددهم عن الخمسين، قادمون من جهة الشمال لمساندة العدو، فأدار ذلوله نحوهم هو ورفاقه لصد اندفاعهم، حيث بدا أن بقية الرفاق يسيطرون على مواقعهم، وتعاملوا ببسالة مع تلك الطغمة الضالة. فلما شاهد العدو الهجوم عليه ترجلوا عن دوابهم، واستخدموها كسواتر يحتمون خلفها من رماية السبعان، الذين بادروا هم أيضاً للنزول والاختباء خلف صخور وشجيرات مجاورة، وفي نفس الوقت كان الالتحام على أشده لدى بقية الرفاق، حيث ضج المكان بصوت طلقات الرصاص ورائحة البارود، ونداء الرجال لبعضهم

البعض مع استغاثة الجرحى. في أثناء ذلك وصل مدد محدود من الدلم وآخر من الحاير، كما أن بعض الأعراب الشرفاء توافدوا لمساندة بني جلدتهم، وأقبل بعض النهابين الباحثين عن أسلاب ما بعد المعارك، ومعهم زاد وشراب للمقاتلين بثمنه معرضين أنفسهم لخطر جسيم، لقاء الحصول على بعض المتروكات والغنائم. خفتت الرماية من كلا الطرفين قبل الضحى، لنفاد ذخيرة بعضهم وإصابة آخرين، لكن أذى الشمس في برج السنبلة الحار أدى إلى مسارعة كثير من البغاة لمغادرة الموقع شمالاً، وقد أوصاهم العارفون بترك الأوائل يغادرون بسلام، ولما تناقص عددهم بدأوا يرمون كل من يخرج من مكمنه، سواء كان من العثمانيين أو أعوانهم العرب، بل طاردوا ما تبقى من فلولهم أثناء الانسحاب العشوائي من أرض يجهلونها، بينما يعرفها جيداً أهل البلدة وجيرانها. قبل الظهر بساعة أو يزيد كانت الساحة خالية من كافة الأعداء، ماعدا الجرحى والمنكسرين الذين أخذوا أسرى للفداء، بعد أن تولوا بأنفسهم دفن قتلاهم الذين وجدوا من بينهم القائد الأعلى لتلك العملية، وهو ضابط مصري يعمل لحساب الترك يقال له "كاشف" أفندي، وكان حوله قتلى من أهل الرياض ومنفوحة يعملون تحت إمرة الترك أيضاً، وقد بلغ عديد الموتى من البغاة ما يقارب المائة، أما شهداء سبيع فكانوا نحو ثلاثين رجل منهم أربعة من الأسرى المقتولين في اللحظة الأولى لبدء الالتحام.

سارع الجد وبعض قرابته للعودة لأهلهم في الحريق للعيد، وآخرون منهم توجهوا نحو الحاير لمداواة جرحاهم، ومنهم من لديه ملك ونخل قليل بدأته ثمرته تنضج. وفي مستهل العام التالي لوحظت كثرة الرسائل الواردة للأمير تركي في علية، أو الصادرة منه إلى قرابته في ضرمي، مما يبعث على القلق حيث تزايدت العيون المترصدة لكل حركة، طمعاً في الفوز بجائزة الترك لمن يقبض على ابن سعود، لكن الجد اكتفى بزيارته للأمير أثناء عيد الأضحى، وما جرى تداوله معه حول أحداث الحاير، وتزايد علامات إصرار الترك للقبض عليه، بعد مصرع قائدهم وأعوانه في الرياض ومنفوحة ، حيث أنهى الأمير النقاش بقول "فرج الله قريب" ورد عليه الجد بكلمته التي يرددها دوما "وسائله ما يخيب" ثم انشغل الجد بمستلزمات أهله وزراعته وتجارته ودوابه. في احدى جلساته مع الأهل والجيران وكزه أحدهم، قائلا لقد عدت للجهاد " يابوعمر" فقد مضت أربع سنوات منذ غادرنا الدرعية، بعد استسلام المشنوق للترك، ولم تطلق نار بارودتك ولم تسل حديد سلاحك، فما الذي غيرك الآن؟ فأجابه إن تلك السنوات لم تشهد جهاد، بل كان بعض المسلمين يقاتلون بعضهم البعض، على أمور دنيوية خائبة من تعالي أو مال، فنزهت سلاحي ويدي ولساني أن تمتد على مسلم، وقد استكفى الترك بمن يتعاملون معهم ضد أبناء ديارهم، واستخدموهم مخلب هر ضد أهلهم وعشيرتهم، وذاك مقاتلة كريهة وليس جهاد، أما هذه المرة فقد استعان بنا جماعتنا لصد بغي الترك وعملائهم، فذاك هو الجهاد الذي أمر الله به فسارعت إليه، وسوف أبقى بأذن لله محارباً للغزاة الذين "يعملون السيئات" في بلادنا الطاهرة، وذلك حتى ينقلعوا عنا أو يقبض الله أمانته.

عندما قص أبي على مجالسيه تلك الحوادث، أشار أنه انما يصف ما جرى كما رواه له عمه زيد نقلا عن جده علي، وأنه لا يقصد من ذلك تفاخر لأحد أو انتقاص من آخر، بل استخلاص العبرة مما جرى للسلف للاستفادة في مستقبل الأيام. أجاب أحدهم بأن لاشك في قصده وأثنى على روايته، لما جرى قديماً كما شاهده أهله، وهو لا يمثل دراسة في التاريخ الشامل الذي له مصادر عديدة غير السيرة الذاتية، انبرى أحد الحضور للرد بغضب قائلا إن سير الصادقين خير من كتب التاريخ، التي يحشو بعضها منافقون لا هم لهم سوى تحقيق أغراض شخصية رديئة، أو يخطها من يستندون على مصادر مجهولة، أو أقوال من "لم يحضر ولم يسمع ولم يرى" أو من يكتب التاريخ لأجل كسب الدراهم. استمعت لذلك في منتصف خمسينات القرن العشرين، حيث جرى جدال حول أحداث تلك السنوات الخمس الحرجة، فقال أحد الجالسين إن معركة الحاير كانت توطئة لتأسيس الدولة السعودية الثانية، ولم نعرف أنه خلالها جرت معركة قوية قتل فيها القائد التركي وأعوانه من الغرباء أو العرب الخونة، ورغم اطلاعه على مصادر تاريخية محلية وتركية ومصرية وشامية وعراقية ومغربية، فلم يجد ما يشير إلى مثل تلك المعركة. قال أبي إن لديه ثلاث ملاحظات أولها أنه لم يكن في سيرة أسلافه ذكر لدولة سعودية أولى أو ثانية، وانما جاء هذا قبل ربع قرن فقط حينما أسس الملك عبدالعزيز "السعودية" وبادر مستشاروه لتسمية ما سبقها بذلك الاصطلاح، وما كان شائع لديهم أن عبارة "الدولة" تعني العثمانية التي قاعدتها إسطنبول (اسلامبول أو الأستانة أو قسطنطينية الروم) كما سماها بعضهم. والثانية أن من تعاونوا مع الترك لم يكونوا جميعهم خونة، فمنهم المستضعفون وذوي الحاجات أو لديهم ضغائن مع ذرية الإمام محمد "ابن سعود" في زمن قديم، ثم أشار أن من بين أولئك أناس من كافة العشائر بما فيهم قبيلة سبيع أو حتى أقارب جده، والخونة فقط هم من قتلوا قرابتهم وجيرانهم بغير حق. والملاحظة الثالثة أنه لا يُحدِث نقلا من أباعد بل نقلاً عن أسلافه، كما شاهدوا وسمعوا وحضروا والمؤكد أن هناك أحداث أخرى لم يسردوها، حرصاً على البعد عن الخوض في أقوال ملتبسة، وأكد كلامه أحد السهول كان معهم، فقال نحن من أقارب سبيع (من عامر بن صعصعة لأن بني عامر غير ذلك) وعديد منا في الحائر وكثير منا في سدير، وقد روى سلفنا أنهم قد شنوا هجوم ضد العثمانلية في تلك الحقبة، وقتلوا قائدهم التركي وحشد من مساعديه، وسارع أحد قصمان مكة المحبين لوالدي، ونحن أيضاً كان لنا دور في قتال الترك بعد شنق الإمام، فقد حاربنهم وقتلنا العديد منهم حتى أخرجناهم من بلدتنا، فأجابه أحد رفاقه بل أنتم كنتم تقتلون بعضكم البعض، في سبيل استرضاء الترك والحصول على المناصب، فقال أبي هذه هي "معضلة التاريخ" تناقضه مع بعضه، أما السيرة التي يرويها بأمانة من عاشها فعادة ما تسلم من تلك الآفات.